أنبل مقول في تقدير الرسول

صلى الله عليه وسلم

بقلم

مصطفى أبو سيف الحمامي

خطيب الحرم الزينبي

وهى رسالة العراق فى هذا العام (١٣٥٧) مع زيادات اضيفت اليها .
فهى اخت الشجاعة والينابيع . ويليها قصيدتان للمؤلف ايضاً .
اولاهما . انين الخائفين . وحنين العارفين . وثانيتهما . ألحان الهيام .

بحب علم الاسلام



قال أحد الأعلام فى هذا العصر الشيخ يوسف الدجوي لما رأى هذه الرسالة

مصطفى الحمامى أبو النفحات ✿ مستمد من صفوة الكائنات
فلهذا نرى له كل يوم ✿ مبدعات تدنو من المعجزات
وكفى « أنبل المقول » دليلا ✿ مفهما ذا من آيه البينات
أسأل الله أن يديم علاه ✿ فى ازدياد من تلكم المبدعات

طبع على نفقة ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد احمد حنفى
شارع المشهد الحسينى رقم ١٨ ص ب الغورية رقم ١٣٧

أنبل مقول في تقدير الرسول

صلى الله عليه وسلم

بقلم

مصطفى أبو سيف الحمامى
خطيب الحرم الزينبى

وهى رسالة العراق فى هذا العام (١٣٥٧) مع زيادات اضيفت اليها .
فهى اخت الشجاعة والينابيع . ويليها قصيدتان للمؤلف ايضاً .
اولاهما . انين الخائفين . وحنين العارفين . وثانيتهما . الحان الهيام .
بحب علم الاسلام



قال أحد الأعلام فى هذا العصر الشيخ يوسف الدجوى لما رأى هذه الرسالة

مصطفى الحمامى أبو النفحات * مستمد من صفوة الكائنات
فلهذا ترى له كل يوم * مبدعات تدنو من المعجزات
وكفى «أنبل المقول» دليلا * مفهما ذا من آيه البينات
أسأل الله أن يديم علاه * فى ازدياد من تلكم المبدعات

طبع على نفقة ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد احمد حنفى
شارع المشهد الحسينى رقم ١٨ ص ب الغورية رقم ١٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — خطبة الرسالة

ياباريء هذه الكائنات ، على غير مثال ، وبديع رفيعي الدرجات ، على أكمل حال ، يارب رحمة هذا الوجود ، عبدك محمد بن عبدالله، أنجم ماصدر منك من جود ، على العالم فى أولاه وأخراه ، أحمدك على ما أفضت من آلاء ، حمد ذوى القلوب العارفين ، وأستمنحك ما يكافىء عنا صفوة الأنبياء ، مع المزيد من فضلك يا أكرم الأكرمين ، واستوهبك ذلك لاخوانه الرسل الكرام ، ولكل من تبعه وتبعهم على الايمان ، وأخص منهم طائفة العلماء الأعلام ، بدور الأمم وقادتها فى كل زمان .

٢ — أى قدر قدر العبد الصادق فى عبوديته

أما بعد فان العبد — وان بدا فى صورة لا تعجب الناظرين ، وان كان لايملك من المال لا قليلا ولا كثيرا ، وان كان من أسرة ليست هنا ولا هناك — اذا صدقت عبوديته لله عز وجل كان قدره من مواقف العقول الموثقة ، تتهيب أن تتقدم الى تقديره حق قدره ، ذلك أنهم يقولون — وماأصدق مايقولون — ان قدر العبد يتبع قدر سيده ، فكلما كان قدر السيد أسمى كان قدر العبد أسمى بين العبيد ، وهو معنى لاتوقف فى تسليمه ، والنتيجة اللازمة

لذلك ان عبد الله تعالى حقا تتحير العقول فى اكتناه حقيقته والحكم على ماله من فخامة وعظم ، فانه تابع لرب ذوى الأقدار الذى من فضله كل ما يكون فى الدنيا والآخرة من فضل ، نعم من التهور الجرىء أن يتقدم امرؤ الى ذلك العبد الصادق العبودية ليقول كلمة فى تقديره تحيط بدرجته عند ربه سبحانه وتعالى ، وقد وقع هذا المعنى فى نفسى يوماً فنظمته فى أبيات على لسان حال ذلك العبد هذا نصها :

يا خليلىّ اعرفانى أنا لله الحكيم
أتباهى وفخارى خدمتى هذا الحليم
من بهذا الكون مثلى أنا خدام العظيم
أين منى خادمونا لذوى ملك قويم
هم عبيد لعبيد كلهم ذل مقيم
وأنا عبد بديع الـ خلق ذى العرش العظيم
ان قدر العبد يقفو قدر مولاه الكريم
واذن قدرى يعلو مستوى العقل الفهيم
اذ محال ان عقلا يقدر الله العليم
حقق اللهم وصفى يارءوفا يارحيم
لأباهى بعلائى صادقا فضلى جسيم

٣ — قدر حضرة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم

واذا كان هذا يقال فى أى عبد صدق فى عبوديته فماذا نحن قائلون فى قدر عبد اتفق فضلاء العبيد على أنه الوحيد فى فضله بين سائر العبيد

فى كل هذا الوجود ، بحيث لايجدون واحداً منهم يرفع رأس الخلاف اذا سمعوا من يقول بينهم ان رب العالمين لم يتفضل بخلق عبد يدانى ذلك العبد فى فضله عنده سبحانه وتعالى ، لا ولا يجدون منازعا منهم اذا قرع أسماعهم الحكم القاضى برجحان ذلك العبد على كل خلق الله مجتمعين لايخرج منهم واحد ، أى هم متفقون على أن ذلك العبد اذا وزن بأفراد العالم كل منهم على حدته رجح به ، وهو كذلك يرجح على أفراد كل العالم اذا كانوا جميعهم فى كفة وهذا العبد وحده فى كفة ، واذن ماذا تقول العقول وماذا تعيد فى تقدير ذلك العبد ، انها والله معقولة عقلا شديداً عن أن تتقدم الى خطر وزنه الوزن الذى يحيط بفضله احاطة صحيحة ، أنا لا أشك فى أن حضرات قرائى يعلمون علما ضروريا من هو ذلك العبد وان لم اصرح باسمه الكريم ، وهل تحتاج الشمس وهى فى نصف النهار ليس دونها سحاب الى من يشير اليها يعرفها لبصير ، ان هذه الاشارة لو كانت دلت على مالا يستطيع قلمى أن يصرح به فى المشير ومن يشير له ، وانما تكلم المتكلمون فى شأنه صلى الله عليه وسلم للذات روحية يجدونها فى ذلك الكلام — وحتى يهتز كريم بما يسمع من شمائله صلى الله عليه وسلم فيتعلق بها ويتصف بما يستطيع منها على قدره — ولحاجات فى نفوسهم يعلمها خالقهم ، وهى لاتخفى على المتكلم عنه صلى الله عليه وسلم ، وقد يصرح بها بعضهم ، حققها لنا ربنا على يدى هذا العبد الذى أشرف أوصافه أنه عبد لم يصل الى ما نشير اليه من فضل الا بوجود هذا الوصف فيه بدرجة فريدة .

٤ ــ المتقدمون والمتأخرون فى الكلام عنه صلى الله عليه وسلم

لم يستسغ المتقدمون من هذه الأمة ما استساغه المتأخرون منها من الكلام عنه عليه من الصلوات والتسليمات ما يناسب قدره ويناسب فضل مولاه عليه وحبه له ، كانوا رضى الله عنهم يتهيبون أن يتقدموا الى هذا الميدان ميدان الكلام فى قدره عليه الصلاة والسلام ، ومن يلوم انسانا يتهيب الاقدام على وزن السموات السبع والأرضين السبع وزنا مفصلا ينطق فى افصاح بمقادير أحجامها وعدد ذراتها ، ان الذى يلوم هذا يجهل معنى اللوم ويجهل ما يصح أن يلام عليه ومالا يصح ، بل ويجهل ما يمكن أن يتناوله الوزن ومالا يمكن أن يتناوله ، وقد لمح هذا من يقول فيه صلى الله عليه وسلم

مثلى فيك فى مديحى كما لو ... وصف العرش ذرة عمشاء

وصفت ما رأته منه ولكن ... فاق منه العلو منك العلاء

يريد هذا الرجل العظيم أن يقول ان النملة الصغيرة جدا اذا نظرت الى العرش لا تحيط منه بشيء له قيمة تذكر ، خصوصاً اذا علم أنها عمشاء ضعيفة البصر ، وأنه المخلوق المحيط بالعوالم كلها احاطة الظرف بمظروفه ، ويضاف الى ذلك أن النملة ليست لها القوة التى تفهم الأشياء على ماهى عليه ، يقول هذا العارف ــ عليه من ربه رحمته ـ ان محاولتى وصفه صلى الله عليه وسلم يشبه محاولة النملة الضعيفة البصر الفاقدة العقل وصف العرش أكبر المخلوقات ، اذن هو يقول انى فى دائرة من محيط فضله صلى الله عليه وسلم اذا قيست بالباقى منه تبين أنها فى حكم العدم الصرف ، والذى يقول هذا لا أعلم

فى الأمة الاسلامية كلها من أولها لليوم عالما قال عنه صلى الله عليه وسلم قريبا مما قاله هذا الناثر البديع والشاعر الأبدع ، حضرنى مبلغ قدره صلى الله عليه وسلم وقت انتهائى من رسالتى (ينابيع الوداد . لصفوة العباد . صلى الله عليه وسلم) فقلت أتنصل من تبعة تعرضى للكلام عنه عليه الصلاة والسلام

عفوا يا أسمى الخلق فنى   حبى لكم اسمى الشفعا

نعم هو حبه صلى الله عليه وسلم الذى يتغلب على محبيه صلى الله عليه وسلم فيدفعهم الى اقتحام هذا الميدان ، واذا دل هذا الاقتحام على شىء من عدم المبالغة فى الاحتراس والاحتياط فى رعاية الأدب معه صلى الله عليه وسلم فليعذرهم المؤمن ، فان الحب هو الذى ألجأهم الى هذا الموقف ، ولعله لا خلاف فى أن الحب شفيع أى شفيع . واذن فلينظر حضرة القارىء بهذه العين الى حضرات المتأخرين الذين تشرف الكثير منهم بمدحه صلى الله عليه وسلم وذكر بعض ما وهبه له ربه سبحانه وتعالى من فضل

٥ — ازالة اشتباه

وقد يشتبه بعض ضعاف العقول فى أنه صلى الله عليه وسلم أرجح - فى فضله - من العالم كله ، ويتمنى ان لو سمع ما يزيل اشتباهه ذلك ويتركه فى طمأنينة بتلك الحقيقة لا يعتريها أدنى زلزلة ، وانى أعجب كل العجب ممن يتوقف فى هذا التقدير والأمة الاسلامية كلها عليه ، فهل معنى توقفه هذا أن هذه الأمة أجمعت على خطأ ؟ وكيف تجمع على خطأ وهى خير أمة أخرجت للناس ؟ واجماعها هذا حجة وأصل من أصول

الدين يرغم المؤمن على تلقيه بالقبول والعمل بما دل عليه فاهما أنه دليل من أقوى الأدلة الإسلامية حتى ذهب ذاهبون الى تكفير من ينكر ما دل عليه متى كانت درجة نقله فى دائرة الصحة والصواب ، وليلاحظ حضرة القارىء أن الاجماع الذى هذا حاله هو اجماع العلماء محترمى الفهم فى عصر واحد على معنى من المعانى الدينية ، وليس الاجماع على تقديره صلى الله عليه وسلم ذلك التقدير من طراز هذا الاجماع المذكور ، بل هو اجماع يشترك فيه علماء كل العصور من عهده صلى الله عليه وسلم الى اليوم ، فهو اجماع وحيد بين أفراد أنواع الاجماع ، والمرء متى كان مسلما لا يجرؤ على الوقوف فى وجه اجماع هذا قدره ، ونحن لا نرى وصفا لمخالف هذا الاجماع أليق من وصفه بأنه خارج من ضمن الخوارج على هذه الأمة الكريمة ، فليحفظه له القارىء الكريم

٦ — هل القرآن الحكيم يدل على انه صلى الله عليه وسلم أفضل العالمين

على أن القرآن العزيز مملوء بما يفهم هذه الحقيقة ، ولو لم يكن فيه الا قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) — لكفى فيصلا فى الموضوع ، كيف لا وكلمة (العالمين) كلمة عامة جامعة لأفراد كل المخلوقات انسهم وملائكتهم وجنهم ، ومن قال غير ذلك فقد حاول الجدال فى البين كل التبين ، واذا كان صلى الله عليه وسلم رحمة لكل فرد من أفراد الانس والملائكة والجن بشهادة ربه فمعنى هذا أنه أرجح فى فضله من الكل رجحانا عظيما ، والا لم يكونوا

مرحومين به ولا كان رحمة لهم ، وانى أحب أن لا يفرق القارىء بين مؤمن وكافر في شمول هذه الرحمة ، ولكن يجب أن يقصر كونه رحمة للكافرين على هذه الحياة، وحسب القارىء دليلا على انه صلى الله عليه وسلم رحمة للكافرين فى هذه الحياة الدنيا أنهم لما قالوا ماحكاه الله تعالى عنهم وهو (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) — قال ربنا عز وجل (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ، بين تعالى بهذا سبب عدم اجابته ما طلبوه من امطارهم حجارة أو اتيانه تعالى لهم بعذاب أليم ، وانى أرجو حضرة القارىء ان يطيل النظر فى هذه الآية ، وأن يكرر هذا النظر كثيرا وكثيرا فى قوله تعالى (وأنت فيهم) ، وأضن بروعة هذا الكلام عن أن أمسه بأى تعليق ، وهل يستطيع حضرة القارىء الفهامة ان يحيط بمقدار جاه يبلغ قدره الى حد ان يحمى أعداءه الشديدى العداوة الشرسى الأخلاق المنقطعى النظير فى خلق الجفاء ؟ ولو عامل الله تعالى كفار هذه الأمة بما كان يعامل به كفار الأمم الماضية حينما كانوا يكذبون أنبياءهم مارأت عينك كافرا واحدا اليوم على ظهر الارض ، فان عادته تعالى مع مكذبى الرسل ان يستأصلهم بعذاب سماوى لا يبقى منهم أحدا ، وكل من على وجه المعمورة من الانس والجن ممن أرسل اليهم نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلو عامل الله تعالى الكفار بسنته مع الامم السابقة لأبادهم جميعا فكان لا يبقى لهم نسل ، واذا انقطع تناسل الكفار كان من اللازم لذلك ان لا ترى كافرا فى الوجود ، هذا من آثار كونه صلى الله عليه وسلم

رحمة للكفار ، ويضاف الى ذلك ما يترتب على بقائهم أحياء من أنواع الملاذ التى يتلذذون بها من مناكح ومآكل ومشارب وملابس ومراكب ومناظر وأبناء وأفهام ومملوكات وأساس ذلك كله وهو ماهم عليه من عافية فى أبدانهم وعقولهم ، وانى أتمنى أن يعود حضرة القارىء الى الآية المتقدمة (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ، ويكثر من التفكير فيها لعله يصل منها الى أن ربنا الحكيم العليم اختص هذا الانسان الكامل صلى الله عليه وسلم من بين سائر ما أبدع من الخلق وجعله وحده رحمة للجميع ، أى وكان مما أفاض عليه من بدائع الاسرار وفرائد الكمالات ما به صار ينبوعا فياضا لا يفتر لحظة من الزمان عن توزيع ماشاء الله أن يوصله لعباده من آثار تصرفاته الآلهية . كما يقول هو صلى الله عليه وسلم (أنا أبو القاسم الله يعطى وأنا أقسم) . رواه الحاكم بسند صحيح ، وكما يقول صلى الله عليه وسلم (أنا مبلغ والله يهدى وانما أنا قاسم والله يعطى) . رواه الطبرانى بسند حسن ، وهذا مقام أقبض عنان القلم عن الجرى فى ميادين بيانه حق البيان ، فان الاستعدادات اليوم لا تطيق ذلك ، وحسبك من هذا أن تفهم أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أفراد الناس فردا فردا ، ويعلم من كل واحد منهم حالته التى هو عليها ، ويعلم ما يناسب كل فرد من أفراد العباد من خير أو غيره ، وغير محتاج الى البيان ان ذلك العلم بتعليم مولاه له ، ولو لم يكن صلى الله عليه وسلم من العلم بهذه الدرجة لما كان القاسم لما يعطى مولاه ، وكيف يقسم من يجهل ما يقسم ويجهل من يقسم عليهم ، ورجائى الخاص أن يحسن

القارىء فهم هذا المقام ، وقد اشرت الى بعض هذا في قولى من قصيدة طبعت بعد هذه الرسالة

وصل على نبي كل فضل ‏ ‏ به انعمت من كفيه يصرف

٧ — سؤال وجوابه وهو مهم فليتأمل

ولعل سائلا يقول : اذا كان الله تعالى هو المعطى فلم لم يوصل ما يعطى لمن يعطيه مباشرة ؟ وأى سر فى اقامته صلى الله عليه وسلم عاملا فى هذه القسمة لما يعطى ؟ هذا سؤال هين الجواب على من يفهم ان الله تعالى كان قادرا على أن يعطى الفقراء من المال ما يعطى مباشرة دون أن يعطيه الاغنياء أولا ويقيمهم موزعين له على الفقراء من طريق الصدقة الفريضة أو النافلة التى أمرهم بها ووعدهم عليها ماوعدهم من ثواب جزيل - وكان قادرا على أن يعلم الجهلاء العلم ابتداء دون أن يعلمه العلماء ويكلفهم بتعليمه لأولئك الجهلاء - بل وكان تعالى قادرا على ان يفهم كل انسان ماأوحاه من كتبه وسنن رسله صلى الله عليهم وسلم وعلى آلهم مما هو سبب فى سعادة السعداء فى الدنيا والآخرة ، وسبب فى شقاء الاشقياء فى الدنيا والآخرة بدون أن يختصهم صلى الله عليهم وسلم بذلك أولا ومنهم يتعلمه بطريق التبليغ كل من عداهم ويعمل به أولا يتعلمه ولا يعمل به - وكان قادرا أن يصرف الناس من الموقف يوم القيامة وان يدخل عصاة المؤمنين الجنة دون أن يتقدم الشفعاء - رسلا وملائكة واتقياء - ملتمسين ذلك الصرف وذلك الدخول ، ان من يفهم ان ذلك من اكرامه تعالى للاغنياء ليكون لهم الفضل على الفقراء - ومن اكرامه للعلماء ليكون لهم اليد

على من علموهم - ومن اكرامه تعالى للانبياء ليعلم أين منهم أتباعهم فى المنزلة عنده سبحانه وتعالى - ومن اكرامه للشفعاء يوم القيامة لتظهر على رءوس الاشهاد مكانتهم فى ذلك اليوم الرهيب ويعلم من لا يعلم ان اكرامه تعالى لهم لا يقتصر على انه ينجيهم وحدهم من غضبه ودار انتقامه بل وبهم ينجى من ينجى - يفهم بلا تردد ان تلك القسمة التى اختص الله بها سيد خلقه صلى الله عليه وسلم هى اكرام منه عز وجل له صلى الله عليه وسلم كان قادرا على أن يتولاها هو تعالى دون ان يقوم بها صلى الله عليه وسلم ، ولكنه سبحانه وتعالى أقامه فيها لنعلم نحن اين سائر المخلوقات منه صلى الله عليه وسلم فى هذا الفضل الذى يأبى ان يسامى او يدانى ،

٨ هل عقله صلى الله عليه وسلم أرجح من عقل الانس والملائكة والجن مجتمعين

واذا كان صلى الله عليه وسلم بهذا القدر فليكن عندك من المعلومات العادية التى ليس فيها ادنى غرابة ما رواه ابن عساكر وابو نعيم عن سيدنا وهب رضى الله عنه انه قال (قرأت احدا وسبعين كتابا فوجدت فى جميعها ان الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا الى انقضائها من العقل فى جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم الا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا) ، ولو نقل سيدنا وهب هذه الكلمة فى المفاضلة بين عقله صلى الله عليه وسلم وبين عقول العالم العاقل كله من انس وملائكة وجن ما كانت عندى غريبة ولو جدت من قلبى القبول الكلى والارتياح الذى ليس معه شىء من التعجب ، فان ارجحيته صلى الله عليه وسلم على العالم كله تقتضى ذلك اقتضاء

اوليا وان لم يخبر به سيدنا وهب ، وان لم يستند فى اخباره به الى كتاب واحد ، وذلك ان بركة الانسان عقله لأنه هو الذى يدرك الفضيلة ويحمل على فعلها ، ويفهم الرذيلة ويبعث على نبذها وتركها ، وكلما كان العقل اقوى كان اقدر على ردع النفس عن المواقف التى لاتليق واكثر تمكنا من دفعها الى المواقف الفاضلة المشرفة ، وانت لو اردت ان تفاضل بين الناس ما وجدت معنى به تفاضل مثل العقل ، فكلما كان المرء اعقل كان افضل ، قد تقول ان الأعمال الصالحة يتفاضل بها ايضا ، فأقول انا لم اقصر كل معانى التفاضل على العقل ، ومع ذلك اقول لك ان الاعمال الصالحة ثمرة من ثمرات العقل يزينها لصاحبها حتى يفعلها ، فكلما كان اقوى كان أقوى تزيينا للصالحات ، فهى اذن حسنة من حسناته ؛ والتفاضل بها يرجع الى التفاضل به ، والعمل الصالح الذى يصدر من ضعفاء العقول يقدر بقدرهم ، وقد يضيع الرجل الضعيف العقل كل اعماله الصالحة التى عملها طول حياته فى لحظة واحدة بحركة يتحركها أوكلمة ينطق بها ، فاعرف ذلك ، واذن يتبين من هذا ان مقتضى كونه صلى الله عليه وسلم افضل العالمين مجتمعين انه ارجح منهم عقلا جميعا ، بمعنى ان عقولهم لو وضعت كلها فى كفة ميزان ووضع عقله صلى الله عليه وسلم وحده فى كفة أخرى لرجح عقله وحده على تلك العقول جميعها .

٩ — هل علماء الأمم السابقة الفوا كتبا فى فضله صلى الله عليه وسلم

وليلتفت حضرة القارىء الى كلمة سيدنا وهب ذلك الحبر البحر رضى الله عنه من انه وجد ارجحيته صلى الله عليه وسلم فى عقله على جميع الناس فى احد وسبعين كتابا اى من الكتب القديمة التى الفها علماء اهل الكتاب السابقون على وجوده صلى الله عليه وسلم ، ولاتعجب يا اخى من معرفة علماء الأمم السابقة له صلى الله عليه وسلم وبحثهم عنه البحث الذى يصلون منه الى الحد الذى ينقله لنا عنهم سيدنا وهب رضى الله عنه وعنهم ، انى ارجوك ياحضرة المفضال ان لا يأخذك العجب لشىء ينسب اليه صلى الله عليه وسلم ، فانك امام شخصية لم يصدر عن الفيض الالهى شخصية تقاربها ، وما الذى يحملك على العجب من خبر يفهمك ان علماء الامم السابقة يعرفونه صلى الله عليه وسلم وهولم يوجد بعد حتى يخبروا عنه فى كتبهم ذلك الخبر المتقدم ، الم تسمع يا اخى كتاب ربك يخبرك فى صراحة انه صلى الله عليه وسلم معروف لكل امة سبقت لا فرق بين الانبياء والمؤمنين بهم ، القرآن هو الذى يقول ذلك فى آية هى (واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال اقررتم واخذتم على ذلكم اصرى قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين) فهذه الآية الكريمة تخبران الله تعالى اخذ الميثاق على جميع النبيين السابقين لافرق بين نبى منهم ونبى ان يؤمنوا وينصروا الرسول الذى

يبعث بتصديق ما أنزل عليهم من الكتب لو بعث فى زمنهم ، والرسول الذى بهذه الصفة هو خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم ، فانك تقرأ فى القرآن آيات كثيرة تذكر هذا المعنى ، كقوله تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه) ، وقوله تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب) ، وقوله (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم) ، وإذا كان الامر هكذا فهو صلى الله عليه وسلم معروف لكل الانبياء من أولهم الى آخرهم ، والكل مؤمنون به وكل على اهبة القيام لنصره صلى الله عليه وسلم لو بعث فى زمنه ، وليس النبى وحده هو الذى يقدم لنصره صلى الله عليه وسلم ، بل لهذا النصر يقوم معه المؤمنون به ممن أرسل اليهم ، وإذن المؤمنون بالانبياء لهم علم به صلى الله عليه وسلم ، جاءهم هذا العلم من أنبيائهم ، ومن هنا نستطيع ان نقول انه صلى الله عليه وسلم نبى الانبياء ، كأنه أرسل إلى كل فرد منهم فصار بالايمان به صلى الله عليه وسلم كأنه من امته ، وقل ذلك فى كل فرد من افراد أممهم باعتبار انه بلغه مقتضى ذلك الميثاق ، وليس من المعقول أن لا يبلغ الانبياء أمرا عظيما كهذا لاهميته الكبرى أخذ به عليهم الميثاق ، وما لنا نستنبط علم الامم السابقة به صلى الله عليه وسلم ونحن نستطيع أن نستدل عليه بأقوى دليل هو القرآن ، اليس هذ القرآن الحكيم يقول (وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل إنى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) . فهذه الآية الكريمة تقول فى صراحة تامة ان سيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم بشر قومه ببعثة حضرة

سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وهل من المعقول ان تجهل الأمة رسولا بشرها رسولها بأن الله تعالى سيبعثه بعد ، وإذا ثبت ذلك بنص القرآن فى سيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم مع أمته ثبت فى الأنبياء وأممهم الباقين لعدم الفارق فى أخذ الميثاق على الجميع ، وهكذا فهم من الآية علماء الصحابة رضى الله عنهم، روى ابن جرير عن سيدنا على رضى الله عنه أنه قال (لم يبعث الله نبيا آدم فمن بعده الا أخذ عليه العهد فى محمد لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة الآية، ونقل هذا ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضى الله عنه ، وقبل ان انتهى من الكلام على هذه الآية الفت القارىء لفتة خاصة لقوله تعالى للانبياء صلى الله عليهم وسلم (أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)، انه لو التفت تلك اللفتة لوجد اهتماما اى اهتمام من الله تعالى بهذا الميثاق ، فانه يقرر حضرات الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ، ويأبى أن يتركهم حتى ينطقوا بهذا الاعتراف ثم يشهدهم على أنفسهم أمرا لهم بذلك ويزيد الأمر توثيقا وتأكيدا فيقول لهم (وأنا معكم من الشاهدين) اى على هذا العهد ، واذن هو عهد فريد لا نظير له أصلا بين العهود لاجتماع شهادة الله تعالى عليه وشهادة جميع الانبياء ، ولماذا كل هذا التشديد الشديد ، انه لمزيد العناية من الله تعالى بسيد خلقه صلى الله عليه وسلم ، وليوصل تعالى العلم به الى الانبياء والى أممهم بالدرجة التى وضعه تعالى فيها بين خلقه ليعرفوه كما هو عليه ،

وإذا كان علماء الأمم السابقة علموه صلى الله عليه وسلم هكذا فكيف لا يكتبون عنه سبعين كتابا فى سبعين فى سبعمائة، ويقولون عنه صلى الله عليه وسلم مايقولون مما يناسب قدره وينقله الينا سيدنا وهب رضى الله عنه، ويا ليت حضرة القارىء يراجع ما قاله عنه صلى الله عليه وسلم أحبار أهل الكتاب ورهبانهم وكهان الجاهلية من كلمات تطرب لها والله الألباب والآذان، وعجيب والله حديث سيدنا سلمان رضى الله عنه، ولولا طوله لأتحفت به القارىء، وليست الآية السابقة وحدها هى التى تفهمنا أنه صلى الله عليه وسلم معروف للأمم قبلنا وهو صلى الله عليه وسلم لم ير هذا الوجود، بل فى القرآن آيات أخرى، منها الآية السابقة التى تتضمن بشرى سيدنا عيسى به عليهما الصلاة والسلام، ومنها قوله عز وجل (الذين يتبعون الرسول النبى الامىّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) فهذه الآية تقول إن أتباعه صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل، فهو إذن كان معروفا بمقتضى الكتابة فى التوراة لحضرة سيدنا موسى وسيدنا هارون صلى الله عليهما وسلم ولكل من آمن بهما وبكتابهما، وكان معروفا بمقتضى الكتابة فى الانجيـــل لسيدنا عيسى صلى الله عليه وسلم ولكل من آمن به وبكتابه، وكان صلى الله عليه وسلم منعوتا

فى هذين الكتابين نعتاً لا يدع أى ريبة فى نفس عارفيه أنه صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء ، ولهذا يقول القرآن (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ، وقد اعترف سيدنا عبد الله ابن سلام رضى الله عنه ومن أسلم معه من علماء اليهود أن معرفتهم به صلى الله عليه وسلم أشد من معرفتهم لأبنائهم ، وعللوا ذلك بما لا يرد ، وهو أنهم يعرفونه صلى الله عليه وسلم بناء على نعت الله الذى يستحيل أن يخطىء ، أما أبناؤهم فلا يدرون ما فعلت أمهاتهم، أى هم يعرفون أبناءهم بحسب الظاهر الذى يلوح للناس ، وقد تكون الأمهات فعلت خفية ما يجعل هؤلاء الأبناء أبناء لأناس آخرين غير هؤلاء الآباء المعروفين ظاهراً ، ويقول تعالى فى ذلك أيضاً (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) ، وبهذا حمّل الله علماء أهل الكتاب تبعة صد الناس عن الايمان به صلى الله عليه وسلم ، فانهم لو ذكروا للناس مالديهم من صفته صلى الله عليه وسلم ماتأخر عن الايمان به أحد ممن كانوا يجهلونه صلى الله عليه وسلم ويكفرون به بناء على ذلك الجهل ، لكنهم كتموا صفته صلى الله عليه وسلم فيما كتموه من الوحى الذى تلاعبوا به فترتب على ذلك ماترتب، وهم لم يكتموها الا حسدا له صلى الله عليه وسلم، وبعدا بأنفسهم عن أن يصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين ، وبهذا كانوا يفقدون جاهاً عظيما ومالاجزيلا ، هذا كتاب ربنا يقول فى ذلك (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا

من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) ، وهل يتبين لهم الحق إلا بيقينهم أنه صلى الله عليه وسلم هو رسول الله الذي يختم به النبيون ، يجيئهم هذا اليقين من الصفات التي بين أيديهم بكتب الله لا تختلف عنها شعرة واحدة صفاته التي يرونها بأعينهم في شخصه الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولقد أبى عدد من أولئك العلماء أن يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن اختبروه صلى الله عليه وسلم وتحققوا أنه متصف بالأخلاق التي أخبرت كتبهم أنها تكون به صلى الله عليه وسلم ، ولولا أن يطول الكلام لأوردنا من ذلك الكثير ، وحديث البخاري الذي ذكر إسلام سيدنا عبد الله بن سلام حديث مشهور ، وهو يتضمن أسئلة ثلاثة لا يحسن جوابها إلا نبيّ ، فلما أجابه عنها صلى الله عليه وسلم بادر إلى الاسلام ، وكذلك معروف حديث من أغلظ عليه صلى الله عليه وسلم يختبره في حلمه فرآه مع اغلاظه ذلك لا يزيده جهله عليه إلا حلما ، فأسلم الرجل لما عرف آيته صلى الله عليه وسلم أمام من يجهل عليه ، ومن الآيات التي تخبر أنه صلى الله عليه وسلم معروف قبل وجوده قول ربنا سبحانه وتعالى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) تخبر هذه الآية الكريمة أنه صلى الله عليه وسلم كان معروفاً لليهود بنعته في التوراة، وبلغوا في معرفتهم بقدره صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا إذا اصطدموا في حرب بأعدائهم المشركين يستفتحون ويستنصرون أي يطلبون النصر من الله تعالى على أولئك الأعداء ببركاته عليه الصلاة والسلام،

كانوا يفعلون ذلك قبل وجوده صلى الله عليه وسلم ، بل وبعد وجوده قبل بعثه ، كان أولئك اليهود يفعلون ذلك ويخبر علماؤهم أن زمانه صلى الله عليه وسلم قد آن ، وكانوا يهددون المشركين بقتلهم معه صلى الله عليه وسلم قتل عاد وإرم ، أى كانوا يخبرونهم أنه مبعوث فى زمنهم ، فاذا بعث آمنوا به ومعه يقتلون المشركين ، وهذا يفهم أنهم كانوا يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم يقتل من لم يتبعه من المشركين ، هذا كان حال أولئك اليهود قبل وجوده صلى الله عليه وسلم ، فلما وجد وبعثه الله تعالى كفروا به وهم يعرفونه حق المعرفة ، حملهم على ذلك الكفر حسدهم له عليه الصلاة والسلام ، هذا ماقاله أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيان هذه الآية ، وعنهم رواه المفسرون لكتاب الله تعالى ، وإنا نعوذ بالله من الحسد ، فانه يصل خطره على صاحبه لحد أن يكفر بمن يتوسل به فيقبل توسله وينصر على أعدائه بسبب ذلك التوسل ، وإن شاء حضرة القارىء أن يسمع فى ذلك من كلام بعض الصحابة فليصغ ، قال حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه (كانت يهود بنى قريظة والنضير قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا ويقولون اللهم انا نستنصرك بحق النبى الأمى إلا نصرتنا عليهم فينصرون ، فلما جاءهم ماعرفوا يريد محمدا ولم يشكوا فيه كفروا به) . رواه أبو نعيم فى الدلائل ، وروى أبو نعيم فى الدلائل أيضا من طريق آخر عن سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه أنه قال (كان يهود أهل المدينة قبل قدوم النبى

صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا من يليهم من مشركى العرب من أسد وغطفان وجهينة وعذرة يستفتحون عليهم ويستنصرون يدعون عليهم باسم نبى الله فيقولون : اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك وبكتابك الذى تنزل عليه الذى وعدتنا أنك باعثه فى آخر الزمان) . وحسب القارىء ابن عباس ترجمان القرآن ، ولو شئت لذكرت غيره وغيره ولكن يطول الكلام ، وليس ذلك من غرضنا فى هذه العجالة ، ولعل فى هذه الآية القرآنية مقنعا لمن لا يعجبهم أن يتوسل مؤمن بنبى أو بولى ، أنا لا يعجبنى من حضرات هؤلاء موقفهم هذا وعلى خلافه الأمة الاسلامية كلها ، وهذا القرآن يصرّح بغير ما يذهبون اليه

وانى أستطيع أن أرجع بحضرة القارىء فى شأن معرفته صلى الله عليه وسلم قبل وجوده — إلى ماقبل وجود والد البشر سيدنا ووالدنا الأكبر رسول الله تعالى ومجتباه آدم صلى الله عليه وسلم ، وان شئت أن تتحقق هـــذا فاسمع . روى أبو نعيم وابن عساكر والطبرانى فى الصغير والبيهقى والحاكم عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه صلى الله عليه وسلم أخبر أن سيدنا آدم صلى الله عليه وسلم توسل بحضرته صلى الله عليه وسلم ، وان الذى حمله على هذا التوسل به صلى الله عليه وسلم أنه رأى على قوائم العرش مكتوبا (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فعلم أن الله تعالى لا يضيف إلى اسمه إلا أحب الخلق اليه ، فقبل ربنا سبحانه وتعالى توسله وأفهمه أن فهمه أن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم أحب الخلق اليه فهم

صحيح — أفهمه ذلك بقوله (صدقت يا آدم ولولا محمد ما خلقتك) وإني لا أدري ماذا يقول أمراء البيان وملوكه في هذا المقام، ولست أنا بالرجل الذي يبلغ به البله إلى الحد الذي به يغامر ويقتحم الكلام في بيان عظمة هذا قدرها، إن الذي أراه بيانا لهذه العظمة أن أسكت وكفى بالعجز عن البيان بيانا، كما لا أدري ماذا يفهم الفاهمون من كتابة اسمه صلى الله عليه وسلم على قوائم العرش أكبر مخلوق، كيف لا والعالم كله علويه وسفليه بالنسبة له شيء ضئيل، ثم ليقل لي القارىء الكريم متى كتب هذا الاسم الكريم على قوائم العرش، ولعله ليس في حاجة إلى البيان أن سيدنا آدم صلى الله عليه وسلم رأى تلك الكتابة بعد أن خلقه الله تعالى، وإذن ليس ببعيد أن تكون تلك الكتابة قبل أن يخلق والد البشر صلى الله عليه وسلم، وليس ببعيد أيضاً ان تكون تلك الكتابة حدثت على تلك القوائم عقب خلق العرش أو مقارنة لخلقه، أما لماذا كتب هذا الاسم الكريم هكذا فجوابه واضح مما فهمه والد البشر سيدنا آدم صلى الله عليه وسلم، وأما لماذا كتب اسمه صلى الله عليه وسلم من ذلك العهد فجوابه سهل أيضاً، وهو أن يكون اسمه صلى الله عليه وسلم مصاحبا لهذا الوجود من أوله، واذن لا يقال ان الوجود خلا منه صلى الله عليه وسلم، وكيف يصدق هذا الاطلاق واسمه صلى الله عليه وسلم المشير إلى حقيقته موجود، ولا تبعد إذا قلت ان الله تعالى جعل لهذا الاسم الكريم بركة يستفيد منها هذا الوجود كله من مبدئه كما جعل مسماه صلى الله عليه وسلم رحمة للوجود كله بعد وجوده صلى الله عليه وسلم،

وحتى يفهم الفاهمون من هـــذا الاهتمام بذلك الاسم الشريف ويفهموا من تلك العناية التي تبرزه لعالم الوجود قبل وجود مسماه صلى الله عليه بآلاف من السنين لا يعلمها إلا الله تعالى — ما يلفتهم من أول الامر إلى مركزه صلى الله عليه وسلم الفرد بين العوالم ، وبهذا لا يمر زمن على الموجودات وقدره صلى الله عليه وسلم مجهول ، فليعلم حق العلم .

ولا يظن القارىء ان الكلام فيه صلى الله عليه وسلم يقف عند هذا الحد ، بل يمكننا أن نزيد عليه زيادة لا نتجاوز بها حقيقته صلى الله عليه وسلم ، قد تقول وما هي هذه الزيادة على وجود اسمه بالحالة التي ذكرناها ؟ وإني أقول ان هذه الزيادة هي ماذكره صلى الله عليه وسلم في قوله (كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد) . رواه ابن سعد وأبو نعيم في الحلية وابن حبان بسند صحيح ، ونحن نعترف أمام هذا أنه فوق قدرنا ، إن تكلمنا فيه لا نحسن الكلام الاحسان الذي نرضاه فضلا عن كونه يرضيه هو صلى الله عليه وسلم ويرضى مولاه ، قد تقول إن هذه هي النبوة العلمية التي تعلق بها العلم الالهي الذي أحاط علما بكل شيء حتى بما لا يقبل الوجود أصلا ، وإني أقول لك ان هذا فهم لا يليق بهذا المقام ، لأنه صلى الله عليه وسلم يكون لا ميزة له حينئذ عن أي نبي من الأنبياء ، بل ولا عن أي حقيقة من الحقائق ، فان العـــلم بكل ذلك كائن وآدم بين الروح والجسد ، لا بل قبل أن يكون روح آدم وجسده ، وإذن لا بد أن تفهم من الحديث معنى به يتميز صلى الله عليه وسلم

ويطلق عليه أنه نبي فى ذلك الظرف ، على أن هناك حديثا يصرح بخلاف ماتفهم ، وهو ما رواه ابن سعد مرسلا عن قتادة باسناد صحيح من أنه صلى الله عليه وسلم قال (كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث) فان هذا الحديث يذكر أن أوليته صلى الله عليه وسلم للناس إنما هي فى الخلق لافى العلم كما تقول ، وظاهر أن لفظ الناس فى الحديث مراد به الانبياء صلى الله عليهم وسلم ، وهو إذا كان أول الأنبياء فى الخلق فهو قبل سيدنا آدم والد الناس جميعا ، وقلنا ان المراد بالناس الأنبياء لأنهم هم الذين بعثوا وكان صلى الله عليه وسلم آخرهم فى البعث ، أما الناس جميعا فلا يبعثون لانهم ليسوا كلهم أنبياء ، قد تقف فى معنى لفظ الخلق الذى فى الحديث وتقول إنه صلى الله عليه وسلم لم يخلق إلا من أبويه الكريمين سيدنا عبد الله ابن عبد المطلب ، وسيدتنا آمنة بنت وهب رضى الله عنهما ونفعنا بهما وبمحبتهما فى الدنيا والآخرة ، إنك إن قلت هذا وقفت فى وجه الأولية التى يقررها صلى الله عليه وسلم موقفا يدفع فى صدرها دفعا، وهى عجرفة لا تصدر من مؤمن أمام حديثين شريفين صحيحين كما علمت ، ولا تنس أن الصحة فى الثانى معها الارسال ، وهذه العجرفة تتضمن تحديداً لقدرة الله تعالى وهى لا تحد أبداً ، وأى مانع يمنع من أن مولاه سبحانه وتعالى خلقه نوعا من الخلق يجعله حقيقة من الحقائق الوجودية التى لا تساوى النوع الذى نعرفه من الخلق الذى يكون من التوالد ، إن قدرة ربنا لاتحد كما قلناه ، وإذن لامانع أبدا من أن يخلقه ربنا ذلك الخلق الذى نشير إليه ،

يفعل ربنا معه ذلك تمييزا له عن كل من سواه من الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وليفهمنا تعالى أن نبيه هذا صلى الله عليه وسلم حقيقة لا نظير لها بين الحقائق ، أنا أقول هذا وأنا على اعترافى الأول من أن الكلام فى هذا المقام فوق درجتى ، وسيأتى لنا فى هذه الكلمة ما تفهم منه أن كل نواحيه صلى الله عليه وسلم لا يحيط بها غير خالقه سبحانه وتعالى ، فلا تتعجب إذا سمعتنى أقول مايفهمك انى لا أحسن الكلام فى هذا المقام ، وهل غريب هذا فى إنسان علمت أنه لو وزن بكل العالمين لرجح بهم مجتمعين ؟ وكيف يكون هكذا إذا سهل لكل من هب ودب من أمثالى أن يتناول أى ناحية من نواحيه صلى الله عليه وسلم فيتكلم عنها كلام الفاهمين المحسنين فى فهمهم ! يجب أن تعلم أن دعوى الاحسان فى الكلام عن كل نواحيه صلى الله عليه وسلم دعوى لا تصدر من عاقل، وكيف يدعيها عاقل وهى تقتضى مساواته صلى الله عليه وسلم أو القرب منه فى تلك النواحى ، فان الانسان لا يحسن الكلام إلا فيما تلبس به من المقامات ، وإذا تكلم فيما لم يذقه كان مجازفا ومعرضا نفسه لما لا يرضاه لها من البعد عن الواقع الذى ليس وراءه إلا الضحك منه والسخرية به ، ومن يرضى هذا لنفسه الا إذا فقد القوة العاقلة .

١٠ — هل الأمة المحمدية معروفة للأمم السابقة

وإنا نزيد على ماتقدم أن الأمر فى العلم قبل الوجود ليس مقصورا عليه صلى الله عليه وسلم ، بل أمته معروفة فى كتب الله

السابقة التي أنزلها تعالى قبل وجود هذه الأمة بعصور كثيرة، ولسنا نستدل على ذلك بأي كلام، بل نستدل عليه بكتاب ربنا سبحانه وتعالى، قال عز وجل في ذلك (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين امنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) فهذه الآية ذكرت وصفين للذين معه صلى الله عليه وسلم الذين هم أمته وقت النزول وصفا نسبته للتوراة ووصفا نسبته للانجيل، إذن تعدى الأمر شخصه الكريم صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه رضي الله عنهم، وقال عز وجل يأمر المؤمنين من هذه الأمة (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس). وهذه الآية تقول بأعلى صوتها ان ربنا سبحانه وتعالى سمى هذه الأمة مسلمين في الكتب السابقة وسماهم هذه التسمية في هذا الكتاب الكريم الذي هو آخر الكتب، إذن هذه الأمة كنبيها صلى الله عليه وسلم مذكورة في كتب الله المنزلة سابقها ولاحقها، وبعبارة أخرى أولها وآخرها، فان لفظ (من قبل) يصدق على كل كتاب سبق، ولفظ (وفي هذا) نص على هذا القرآن الذي هو آخر الكتب، وإني أرجوك أن تفهم أن هذا الشرف الذي لا مثل له

لم تنله هذه الأمة إلا من ناحية أنها أمته صلى الله عليه وسلم، وليتفضل حضرة القارىء فليجبنا عن سؤال هو : هل سمعت فى كتاب منزل، أو فى كلام نبى مرسل أو غير مرسل، أو فى كلام عالم أو جاهل، أو فى كلام أى انسان ولو كان كاذبا أن الله تعالى فعل مع أى مخلوق من الانس أو من الملائكة أو من الجن مثل هذا الذى حكيناه عنه صلى الله عليه وسلم وعن أمته ؟ إنك إن كنت من العلماء لا يسعك إلا أن تقول فى الجواب لا ثم لا ثم لا بالضرورة، إذن هو سيد العالمين صلى الله عليه وسلم دون أدنى مرية، وأمته سيدة الأمم بلا نزاع. وانى أحب أن تعلم أن الله تعالى لم يذكره صلى الله عليه وسلم ويذكر أمته فى كتبه وعلى ألسنة رسله إلا ليستثير الهمم ويشد العزائم ويحرك الرغبات فى الخير — بما يملأ القلوب من إعجاب بمخلوق بلغ من علم الله تعالى بعظمته العظمة الفريدة أن لا يدع سمعا لعبد من عبيده إلا وقد ملأه بذكر ذلك المخلوق — وأن لا يذر نفسا من نفوس العالم المحترم إلا وقد ملأها باجلاله وإكباره، يفعل ذلك ربنا بذلك العبد وهو بعد فى الغيب لا يراه الوجود العيانى إلا بعد أحقاب، ولا يذكره تعالى للأمم قبله تابعين ومتبوعين إلا بعنوان أنه امام للكل متبوع وانهم جميعا له تابعون ولما يقضى به خاضعون منفذون لو وجد بينهم، أليس القارىء معى فى أن هذا مقام يهزأ بالعقول تتصور، وبالألسنة تتكلم، وبالاقلام تكتب تريد أن تقول فيه صلى الله عليه وسلم ما يقدره حق قدره ؟ لتتكسر الأقلام، ولتخرس الألسنة، ولتقف العقول فى حيرة أمام

هذ المقام الذى يستصعب ويأبى الاباء كله عن أن يحيط بقدره إلا مولاه الذى خلقه ووهبه من الاسرار والكمالات ما وهبه . وإنا بعد هذا ذاكرون بعض نواح من نواحى كمالاته صلى الله عليه وسلم التى كتب فيها الكاتبون من أول هذه الامة ، وسيكتب الكاتبون ما بقيت هذه الحياة ، والكل على حافة بحر كمالاته صلى الله عليه وسلم لم يقربوا من اللجة منه ولن يقربوا ، ومع ذلك أنت لا ترى ناحية من النواحى التى سترد عليك إلا ترى من عظمتها ما يبهرك ويحملك على أن تقول عند كل واحدة منها : سبحان من أعطى فأجزل . جلت قدرته . تعالى كرمه ان يحد . آمنت من أعماق قلبى أنه الاله الواحد الذى إذا أراد شيأ قال له كن فيكون . أذعنت أنه يختص برحمته من يشاء . طويت قلبى على أنه لم يفض من خزائن فضله على مخلوق ما أفاضه على هذا العبد الكامل العبودية كمالا لا يشارك فيه ولا يطاول صلى الله عليه وسلم

١١ — مبلغ تحريض ربنا تعالى على الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم

فمن تلك النواحى ما تقرأه فى الكتاب العزيز من تحريض من الله تعالى بلغ المنتهى على الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، وان شئت فاقرأ قوله عز وجل (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) إن ربنا تعالى يقول بهذا : أنا خالق سيد عبادى فهو عبدى وملكى ، ومع ذلك أمرت ملائكتى ان يشتغلوا بالصلاة والسلام عليه فامتثلوا واشتغلوا بذلك وشاركتهم أنا فى الصلاة والسلام عليه ، فياأيها الذين آمنوا به صلى

الله عليه وسلم افهموا هذا حق الفهم واقتدوا بى وبملائكتى فاشتغلوا أنتم كذلك بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، أى اطلبوا منى كما يطلب منى ملائكتى أن أصلى وأسلم عليه فوق ماهو حاصل منى من الصلاة والسلام عليه بلا طلب منكم - اطلبوا منى ذلك لأستجيب لكم دعاءكم ، وأزيده بهذه الاستجابة صلاة وسلاما منى عليه، أى أزيده رحمة وإحسانا وفضلا فوق ماهو عليه من رحمة وإحسان وفضل - ولأزيده تسليما وتأمينا له زيادة على ماهو عليه من تأمين - كما أنى مجيب طلب ملائكتى كلهم منى أن أصلى وأسلم عليه صلاة وسلاما بالمعنى المذكور ، ليقل لى حضرة القارىء : هل سمع هذا فى فى مخلوق ؟ ومن سمع انه تعالى يصلى ويسلم على مخلوق ، ولا يكتفى بهذا ، بل يأمر ملائكته كلهم أن يطلبوا منه أن يصلى ويسلم عليه ، ولا يكتفى بهذا وذاك ، بل يأمر كل من آمن به بعد الملائكة من الانس والجن ان يطلبوا منه كالملائكة أن يصلى ويسلم عليه صلى الله عليه وسلم ، ان هذا ما كان من رب العالمين الاله وحده صلى الله عليه وسلم ، لاتتردد فى ذلك أى تردد ، واعلم أنه تعالى لا يأمر الملائكة والانس والجن ان يطلبوا منه الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم إلا وقد أراد أن يجيبهم فى طلبهم هذا كلا على حدته ، وبناء على ذلك يزيده من صلواته وتسليماته بعدد طلاب ذلك ، وهو عدد إنما يعلم قدره ربنا وحده لأنه العليم الخبير ، وهل تتصور العقول مبلغ مايتفضل به تعالى عليه صلى الله عليه وسلم من مقامات بناء على صلاته هو وبناء على طلب عباده أن يصلى ويسلم عليه ؟

وليعلم أنه تعالى وملائكته تتجدد صلاتهم عليه دائما كما يفهمه لفظ (يصلون) وان العباد الذين يصلون ويسلمون عليه لا يقتصر أحدهم على طلب الصلاة والسلام عليه مرة واحدة ، بل يطلب ذلك ويطلبه مادام حيا ، إن الامر هكذا منه تعالى ومن ملائكته ومن عباده المؤمنين حتى تقوم الساعة ، وإذن لا يعلم إلا ربنا وحده عدد مارفع اليه من طلبات من جميع الملائكة ومن جميع المؤمنين من الثقلين الانس والجن أن يصلي ويسلم عليه صلى الله عليه وسلم ، ذلك أمر لا يحتمل الشك أبدا ، إذن لا يعلم غير ربنا ماوصل اليه صلى الله عليه وسلم من خير أثرا لاجابة كل تلك الطلبات ، لا بل كل إجابة لكل طلب لا يعلم إلا الله مايصله صلى الله عليه وسلم من خير أثرا لها ، إن حضرة هذا العبد صلى الله عليه وسلم إذا لم يكن له من الأسباب مايجعله أرجح الخلق جميعا إلا هذا لكان ناهضا وفوق النهوض بهذا المطلب .

١٢ — سؤال عجيب وجوابه بما يقتلعه اقتلاعا

ولعل القارىء يقول هنا سائلا : هل من ملام على من يؤدى فرائض الله تعالى ثم يشغل حياته كلها بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم دون أن يذكر الله تعالى بأى نوع من أنواع ذكره حمد ، أو تهليل ، أو تكبير أو تسبيح ، أو حوقلة ، أو استغفار الخ ؟ والجواب عن هذا السؤال أنه سؤال من لا يحسن السؤال ، أو هو سؤال من لا يعرف الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فانه يقول (هل من ملام) الخ ، وإنى أقول لك ملام الله تعالى للمصلى

عليه صلى الله عليه وسلم هو ان يصلى عليه بكل صلاة يصليها عشر مرات ، أخبر بذلك هو صلى الله عليه وسلم فى قوله (من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرا) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وأحمد ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم (من صلى على واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات ورفع له عشر درجات) رواه الحاكم والنسائى وأحمد والبخارى فى الادب المفرد ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم (من صلى على حين يصبح عشرا وحين يمسى عشرا أدركته شفاعتى يوم القيامة) رواه الطبرانى ، فهل لوم من الله تعالى أن يصلى عشر مرات على كل امرىء صلى عليه صلى الله عليه وسلم مرة واحدة ، وهل يستطيع عقل أن يدرك ما يناله المصلى عليه صلى الله عليه وسلم من خير لاجل صلاته تعالى عليه مرة واحدة ، ان محالا أن يدرك العقل هذا ، فكيف اذا كانت صلاته تعالى على العبد عشرا ، فكيف اذا كانت آلافا وملايين وملايين الملايين مكافأة للمكثر عليه من الصلاة صلى الله عليه وسلم ، فكيف اذا كان الأمر فوق العد وفوق الحساب لمن شغل نفسه بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم طول حياته دون أن يذكر الله بأى ذكر من الأذكار التى تذكرها ، ان العقول تعجز العجز كله مجتمعة عن أن تقدر ما يهبه الله تعالى من فضل لمن استغرق كل حياته بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، هذا لومه تعالى لمن لا يصدر منه بعد الفرائض الا الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، يضاف الى ذلك شفاعته صلى الله عليه وسلم لمن لا يصدر منه من

الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم الا عشر مرات فقط فى الصباح وعشر فقط فى المساء كما يقول الحديث المتقدم، واذا كان الله تعالى يحط عن المصلى عليه صلى الله عليه وسلم عشر خطيآت فى كل صلاة واحدة عليه صلى الله عليه وسلم فهل تبقى من خطاياه خطيئة خصوصا اذا أكثر من هذه الصلاة، واذا كان الله تعالى يرفع هذا المصلى عليه عشر درجات بكل صلاة واحدة ففى أى درجة من درجات العلا المكثر من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، وانى سائل هنا هذا السائل (العبيط) فأقول: هل وعد الله تعالى هذا الوعد الفخم على أى نوع من انواع الذكر التى تعنيها، ان الجواب بالسلب من غير شك، إذن يمكننا أن نقول ان الشغل بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من الشغل بأى ذكر من الاذكار التى تريدها، اللهم إلا إذا كان الذكر بكلمة التوحيد (لا اله الا الله) لقوله صلى الله عليه وسلم (أفضل الذكر لا اله الا الله) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث، فليعلم هذا حق العلم، ثم نقول لهذا السائل: كيف يلوم الله تعالى على عمل هو الذى أمر به وحرض عليه التحريض الذى سمعته، ثم نقول له ان السؤال يفهم أن الصلاة والسلام على حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستا من أنواع الذكر لله تعالى، وهو خطأ عظيم، بل الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى باب ذكره عز وجل بالدرجة التى سمعتها، أليس المصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول (اللهم صل) الخ، يناديه تعالى ويطلب منه أن يحسن إلى أفضل مخلوق خلقه ، إذن المصلى عليه صلى الله عليه وسلم يعتقد أنه تعالى المفزع للسؤال وأنه الذى منه وحده الاحسان حتى إلى أفضل العالمين ، إن المصلى يقول بلسانه ما يفهم ذلك وقلبه مملوء باعتقاده ، وكيف لا يكون هذا ذاكرا لله ؟ فاعرفه حق المعرفة .

١٣ — المعراج

ومن تلك النواحى ما تراه فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من أنه عز وجل رفعه ليلة المعراج إلى أعلى السموات ، بل إلى سدرة المنتهى حيث سمع صريف الأقلام ، وأراه تعالى فى ذلك العالم الأعلى ما أراه من الملائكة وبعض الرسل والجنة والنار ، وأوحى إليه من العلوم ما أوحى مما هو وحده أعلم بمقداره ، وأراه من آياته الكبرى ما أراه ، وفرض عليه الصلوات الخمس ، هل فعل ذلك ربنا مع مخلوق غيره نبى مرسل أو ملك مقرب ؟ إن البديهة تقول لا ، خصوصا إذا انضم إلى ذلك أنه تعالى بالغ فى التفضل عليه والتلطف به إذ أنعم عليه برؤيته عز وجل ، وهى ما كانت ولن تكون لغيره صلى الله عليه وسلم فى هذه الحياة الأولى ، ومع كون هذا المعراج مذكورا فى الكتاب العزيز وفى دواوين السنة الصحيحة هو معروف بين العالم الاسلامى ، يستوى فى علمه الصغير والكبير من المسلمين فى كل عصر من العصور الاسلامية ، وإنما رفعه الله تعالى ذلك الرفع الحسى إشارة منه عز وجل إلى رفعته

صلى الله عليه وسلم عنده عز وجل رفعة لا يشاركه فيها مشارك — وليتشرف به ذلك العالم ، كما تشرف به العالم الأرضى — وليزداد صلى الله عليه وسلم علما بذلك العالم ، فان العلم الذى يعتمد على الحس أقوى أنواع العلم بلا جدال ، وعجيب أن يتردد إنسان فى ثبوت هذا العروج وقدره عند الأئمة فى ذلك الثبوت ماسمعت ، نحن نقول الأئمة لا نفرق بين المتقدمين منهم والمتأخرين ، وهل يدرى القارىء لماذا يتردد ذلك المسكين ؟ إنه يتردد لأن المعراج يخرق نواميس وعادات أجراها ربنا فى هذا الكون لا تسمح بأن إنسانا يعرج ذلك العروج ، وهى شبهة أسخف من عقل صاحبها ، فان تلك النواميس — مع تسليم مايقال عنها — مجعولة ، جعلها من أراد أن يكون ذلك المعراج ، ومن البديهى أنه تعالى إذا أراد شيأ هيأ أسبابه التى بها يحصل ويكون ، وهل يستطيع عاقل أن يقول إن ربنا تعالى لما أراد العروج بنبيه كان عاجزا لا يقدر أن يهىء له الأسباب التى بها يرتفع صلى الله عليه وسلم إلى ذلك العالم العلوى ؟ أو يعدم الاسباب التى تحول دون هذا العروج ، إن الأسباب هو الذى جعلها كما قلنا ، وهو قادر على أن يجعل غيرها ، وقادر أن يسلبها سببيتها سلبا تاما ولكن الجهلاء لا يعلمون ، لهذا يهرفون بما لا يعرفون .

١٤ — مبلغ حماية ربنا لنبيه صلى الله عليه وسلم

ومن تلك النواحى ما يتمثل أمامك فى قوله تعالى لسيدتين من زوجات حضرة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فان الله هو مولاه

وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) هو تهديد بلغ الغاية فى الشدة ، يقصد به أولا السيدتان لما أنه حصل منهما شىء يغير قلبه صلى الله عليه وسلم ، وهو فى الوقت نفسه موجه إلى كل من تحدثه نفسه بفعل أى شىء يتأذّى به صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا التهديد كما ذكرت من الشدة لما انه تعالى يصرح فيه بأنه نصيره صلى الله عليه وسلم على من يريد أن يغضبه ، وهو تعالى إن نصر بلغ ما أراده ممن يريد النصر عليه ، ومحال أن لا يبلغ ذلك وهو الذى إذا أراد شيئا كان كما أراد فى الحال وإن أراد زوال السموات والأرض ، واذن كيف لا يبلغ ما أراده من عبد هو العدم بالنسبة له عز وجل ؟ ومع كون التهديد به تعالى يكفى وفوق الكفاية لما أنه تعالى كل شىء — مع ذلك زاد هذا التهديد شدة وتهويلا فأخبر تعالى أن من نصرائه صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل الملك الكريم الذى يقول الله فيه (شديد القوى) وكانت صيحة واحدة من صيحاته تكفى لابادة أمة بأسرها ، وهو الذى رفع بلاد قوم سيدنا لوط صلى الله عليه وسلم ، اقتلعها من الأرض اقتلاعا ثم كفأها على من بها فأصبح عاليها سافلها وسافلها عاليها ، أخبر ربنا ان هذا المخلوق الغريب فى قوته غرابة تجعل ربنا تعالى يذكره بعده بلا فاصل — من أنصاره صلى الله عليه وسلم على من يريده بسوء ، ولم يكتف ربنا فى ذكر نصرائه على نفسه وعلى سيدنا جبريل ، بل أخبر كذلك أن من نصرائه صالحى المؤمنين به صلى الله عليه وسلم وهم الذين برئوا من النفاق ، وقوتهم رضى الله عنهم قوتهم حتى قال ربنا فيها (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) ، وقال

(يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وزاد ربنا هذا التهديد شدة بعد شدة فقال (والملائكة بعد ذلك ظهير) أي ان كل الملائكة كجبريل فى الانتصار له صلى الله عليه وسلم إذا قصده معتد بأي اعتداء ، ومعلوم أن ملكا واحدا يكفي لأن يهلك كل الأمة فى لحيظات ، هذه حمايته تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وهى حماية جدير أن يصعق ويفارق الوجود هلعا وفزعا من يقرع خبرها سمعه وهو يعرف من نفسه أنه يريده صلى الله عليه وسلم بأى سوء ، إنى بأعلى صوتى أكذّب علنا من يقول إن حماية كهذه صدرت منه تعالى لأى مخلوق سواه صلى الله عليه وسلم ، فاعتبروا ياأولى الأبصار .

١٥ — هل رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم كالردة يحبط الاعمال؟

ومن تلك النواحى تسوية ربنا عز وجل رفع الصوت على صوته صلى الله عليه وسلم - بالارتداد عن دين الاسلام فى أن رافع صوته مهدد باحباط كل ماقدم من عمل صالح ، كما أن الردة تحبط ذلك ، وإن شئت فاقرأ قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) نزلت هـــذه الآية وسمعها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهموها حق الفهم ، ومن أجلها ظن سيدنا ثابت ابن قيس أنه من أهل النار فمكث فى بيته يبكى أسفا على نفسه ، ولم يهدأ حزنه حتى بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة ، ومن بعد ذلك أخذ على نفسه أنه لايرفع صوته أبدا على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رفيع الصوت جهوريه بحسب خلقته وطبيعته ، لم يرض ربنا سبحانه وتعالى أن يكون فى حضرة نبيه صلى الله عليه وسلم أحد إلا وهو بغاية الاجلال والاحترام له صلى الله عليه وسلم حتى حظر ذلك الحظر المخيف أن يرفع صوته أحد أمامه صلى الله عليه وسلم إلا بقدر محدود ، وهل فعل ذلك ربنا مع مخلوق ؟ إن الجواب بالسلب قطعا .

١٦ — حكم الله تعالى على من يناديه صلى الله عليه وسلم وهو داخل بيته ليخرج له

ومن تلك النواحى أنه عز وجل سلب العقل عن أكثر جماعة ذهبوا اليه صلى الله عليه وسلم ليقابلوه ففهموا أنه فى داخل حجرة من حجرات زوجاته فنادوه ليخرج إليهم فعلمهم تعالى الأدب معه صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الحالة ، وهو انهم يصبرون فى انتظاره حتى يخرج إليهم من تلقاء نفسه ، أما تكليف خاطره وحمله على مبارحة بيته لكائن من كان فسوء أدب لا يصح أن يصدر إلا من مسلوبى العقول الذين لذهاب عقولهم لا يقدرون الأمور قدرها ، وفى هذا يقول الله تعالى فى كتابه (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) .

١٧ — هل كان يجب أن يتصدق من يريد مكالمته صلى الله عليه وسلم ونسخ ذلك ؟

ومن تلك النواحى أنه تعالى أمر أصحابه صلى الله عليه وسلم أن يتصدقوا على الفقراء إذا أرادوا أن يتكلموا معه صلى الله عليه وسلم

فى شان من الشئون الخاصة ليكون الكلام سرا لا يسمعه سوى من يريد الكلام ، وفى ذلك قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم) أمرهم ربنا هذا الأمر ليزيدهم أدبا وهيبة له صلى الله عليه وسلم - وليخففوا من الأسئلة التى كانوا يكثرون من توجيهها إليه صلى الله عليه وسلم - وليفهمهم سبحانه وتعالى أن مشافهته صلى الله عليه وسلم بالكلام نعمة ليست أى نعمة ، بل نعمة ينبغى أن تخص فى الوصول إليها بعناية خاصة هى التقرب إلى الله تعالى ببذل بعض المال الذى قدره فى النفوس قدره ليتفضل تعالى عليهم باباحة مناجاته صلى الله عليه وسلم وقد أصبحوا صالحين لمكالمته صلى الله عليه وسلم، إذا أنهم حينئذ قد طهروا أو زادوا طهارة بصدقاتهم التى قدموها قبل الشروع فى مسارته صلى الله عليه وسلم بالكلام ، ولعله ظاهر من الآية أن وجوب هذه الصدقة خاص بالقادر الذى يجد ما يتصدق به، أما من لم يجد فالآية تعده بمغفرة الله تعالى له تقدمه إلى مناجاة رسوله صلى الله عليه وسلم دون تلك الصدقة ، ولقد نسخ ربنا سبحانه وتعالى هذا الحكم بالآية التى بعد هذه الآية (أأشفقتم) الخ تخفيفا على أولئك الاصحاب رضى الله عنهم، وهذا الحكم - وإن نسخ - لا ينسى أثره الذى تركه فى نفوس أمته صلى الله عليه وسلم من التوقير البالغ والاكبار الذى لا حد له، أليس القارىء معى فى أن هذه العظمة هى العظمة التى يقال لها عظمة بحق، يكون صاحبها فى منتهى حدود التواضع لله تعالى ولعباده ، وفى منتهى ما يتصور من الفضل ، ومع ذلك يأبى ربه عز وجل

أن يتقدم للكلام معه أحد إلا بتلك القربى ، وليست العظمة أن يكون المرء فى منتهى حدود النقص والانحطاط ويأبى هو بحرقة وجفاء أن يتقدم للكلام معه أحد ، إن هذه هى الحقارة التى لا يناسبها إلا الضحك من عقل صاحبها والسخرية به وإفهامه أنه جدير بأن لا يتقدم للكلام معه أحد لانحطاطه الذى لا يوازيه انحطاط .

١٨ — شفاعته العظمى صلى الله عليه وسلم

ومن تلك النواحى شفاعته صلى الله عليه وسلم الشفاعة العظمى يوم القيامة ، فانّ بهذه الشفاعة يظهر فضله صلى الله عليه وسلم الظهور كله فى ذلك اليوم الذى تظهر فيه درجات الناس بحسب مقاماتهم عند ربهم سبحانه وتعالى ، فى ذلك اليوم يطول قيام الناس فى الموقف ، ويشتد الزحام ، ويشتد الألم والكرب بدنوّ الشمس من رءوس الواقفين حتى لا يكون بينهم وبينها إلا مقدار ميل ، فمن عظم ما ينزل بهم من حرارتها يتصببون عرقا ، فيكثر هذا العرق ثم يكثر حتى يلجمهم إلجاما ، وكيف لا يكون هذا اليوم شديدا وهو الذى يقول الله تعالى فيه (يجعل الولدان شيبا) ويقول (إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ويقول (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) ، وما إلى ذلك من الآيات الكريمة التى تفهم هلع الناس فى ذلك اليوم وجزعهم وفزعهم الذى

تذهب عقولهم من مبلغ عظمه ، وقدقدر ربنا سبحانه وتعالى مقدار طوله بقوله فى كتابه (كان مقداره خمسين ألف سنة) ، فى هذااليوم الرهيب يتذكر الناس الأنبياء فيذهبون إلى حضرات المشاهير منهم سيدنا آدم ، وسيدنا نوح ، وسيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى ، وسيدنا عيسى ، راجين منهم واحدا واحدا أن يشفعوا لهم عند ربهم أن يصرفهم من هذا الموقف ، فيعتذر الكل عن هذا المقام ذاكرين أن الله تعالى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، فيذهبون إلى خاتمهم وسيدهم صلى الله عليه وسلم باحالة من سيدنا عيسى صلى الله عليهما وسلم ، فيقول صلى الله عليه وسلم أنا لها ويخر لربه ساجدا فيتركه سبحانه وتعالى ساجدا ما شاء أن يتركه ، ثم يأمره أن يرفع رأسه وأن يقول فيسمع لقوله،وأن يسأل فيعطى سؤاله ، وأن يشفع فيشفع ، وإذن يسأل ربه هذه الشفاعة العظمى فيشفعه عز وجل فى أهل الموقف كلهم لافرق بين مؤمنهم وكافرهم ، ولا بين رسلهم ولا بين من أرسلوا إليهم ، وهذا هو المقام المحمود الذى يحمده عليه الأولون والآخرون ، فأنت ترى أن هذا الموقف لم يتقدم اليه لانبيّ مرسل ولا ملك مقرب ، فدل ذلك دلالة قاطعة على أنه صلى الله عليه وسلم العبد الوحيد فى جاهه الذى أبى رب العالمين فى غضبه الذى لم يغضب مثله ولن يغضب مثله إلا أن يحترمه وينزله منزلته التى أنزله فيها بين كل عباده ويجعله وحده المسموع الكلمة فى ذلك اليوم العظيم ، نعم إن تشفيعه تعالى له صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم يبرهن برهانا لا يخدش على أنه العبد الذى

ما خلق الله عبدا مثله فى حبه له ، ولو كان هناك مخلوق يضارعه صلى الله عليه وسلم فى تلك المنزلة الفريدة لتبين فى ذلك اليوم ، ولكان لمنزلته هذه أى أثر ، علم هو صلى الله عليه وسلم أن له تلك المنزلة عند ربه فلم يتردد فى التقدم إلى طلب الشفاعة منه مفهما أن ليس فى المخلوقات كلها من يتقدم لها غيره ، ولذلك يقول (أنا لها) ، وكان مولاه عز وجل عند علمه ، فشفعه ورفع رأسه على جميع الرءوس بهذا الاكرام المنقطع النظير ، وله صلى الله عليه وسلم شفاعات أخرى غير هذه الشفاعة العظمى يشفعه ربه فيها كلها ولا يرفض له طلبا .

١٩ — لفت نظر

وقبل أن ننتهى من هذا الموضوع نرى من الواجب علينا أن نلفت نظر القارىء إلى حقيقة قد يغفل عنها وهى أن اليوم الآخر لا يكون بالشدة التى ذكرناها ، وبذلك الطول المزعج على عباد الله الذين هم عباده حقا ، بل أولئك العباد يكونون فى ذلك اليوم كما يقول فيهم ربهم (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) وكما يقول تعالى (ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) ولو كان ذلك اليوم عليهم كما يصف الله تعالى فى الشدة — لحزنهم الفزع الأكبر ، ولكان الخوف شديداً عليهم ، ولكان اليوم عسيرا على المؤمنين ، وكل هذه اللوازم غير القرآن ، أما فى الأولين فكما علمت فى الآيتين السابقتين ، وأما الثالث فلقوله تعالى (فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) فان هذه الآية تقول إن عسر ذلك اليوم الذى بعد النفخ فى الصور النفخة

الثانية إنما هو على الكافرين ، وليس هو بيسير عليهم ، وهذا يفهم بالضرورة أن ذلك اليوم ليس بعسير على المؤمنين بل هو يسير عليهم ، وهو ما نقرره ، فوجب إذن أن يكون عباد الله حقا فى أمن تام فى ذلك اليوم وفى طمأنينة أى طمأنينة ، وليس من الصواب فى شيء ما رأيناه فى كتب العقائد من أن الفزع فى ذلك اليوم يكون عاما للمؤمنين والكافرين حتى أن الانبياء يحصل لهم من الانزعاج ما يحصل حتى ينسوا أنهم المعصومون المحفوظون مما يهين فى ذلك اليوم ، نعم هذا الكلام خطأ صرف لأنك قد علمت أن صالحى عباد الله تعالى يقول القرآن عنهم (لا يحزنهم الفزع الأكبر) ، وإذن كيف يحزن الفزع الأكبر صفوة الصالحين بل الذين لولاهم ما كان فى الوجود صالح ، صلى الله وسلم وبارك عليهم وعلى أتباعهم ، نعم فى هـــذه الحياة الدنيا ترى أولئك العباد الأكابر فى شغل شاغل ، وحزن عام شامل ، لا يبارحهم طول الحياة حتى إنك لترى هيئة الكآبة لا تفارقهم ، ولو جالستهم لأزعجك منهم البكاء الكثير والأنين الطويل أسفا على أنفسهم ، إنهم يتهمون تلك الانفس فيما يعملون من صالحات الأعمال لا يدرون أمخلصون هم حتى تقبل أعمالهم وإذن يستحقون الكرامة ؟ أم ليسوا بمخلصين وإذن تردّ عليهم أعمالهم ويستحقون الاهانة ؟، من هذا التفكير يلاقى صالحو عباد الله فى الدنيا ما يلاقون من أهوال تضطرب بها أعصابهم ، وتنحل أبدانهم حلا ، بل وتتفطر قلوبهم تفطرا ، ومن ماتوا منهم فزعا وهلعا لا يحيط بهم العد ولا يضبطهم الحساب ، وهذا سيدهم صلى الله عليه وسلم

يقول (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن (أى الصور) وحنا جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ فقال أصحابه صلى الله عليه وسلم (فما تأمرنا يارسول الله) قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا). رواه أحمد وابن أبى حاتم، وهؤلاء هم الذين عنهم يحكى ربنا إذ يقول (إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) أى شديدا كريها، وفيهم قال عز وجل يبين حالهم فى ذلك اليوم الذى يخافونه (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) الخ، إن ربنا أكرم من أن يجمع على هؤلاء العظماء عذابين عذاب الدنيا الذى كانوا فيه من ذلك الخوف المبرّح، وعذاب الآخرة الذى منه كانوا يخافون، وهؤلاء بعينهم هم الذين يحكى الله عنهم بقوله عز وجل (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا انا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) فهاهم أولاء يخبرون عن أنفسهم وهم فى دار الكرامة أنهم كانوا مشفقين ووجلين من مستقبلهم فجازاهم ربهم على ذلك الاشفاق والخوف أن منّ عليهم ووقاهم العذاب الذى كانوا يرهبونه، وذكروا من أسباب ماهم فيه من إكرامهم انهم وهم فى الدنيا كانوا يدعونه عز وجل أن يعيذهم من عذابه وأن يكرمهم بدار كرامته فأجاب دعاءهم وأكرمهم ذلك الاكرام. رزقنا الله ذلك الخوف ثم ذلك الأمن بفضله واحسانه.

٢٠ — هل لا يدخل أحد الجنة قبله صلى الله عليه وسلم؟

ومن تلك النواحى أنه صلى الله عليه وسلم أول من يدخل الجنة،

وهذه الناحية معلومة مما تقدم علما ضروريا ، فانه إذا كان صلى الله عليه وسلم أحب الخلق إلى ربه قدمه ولا بد فى دخول الجنة على جميع من عداه من العالمين ، ولو قدم ربنا أحدا عليه فى دخول الجنة ما كان صلى الله عليه وسلم أحب الناس إليه وأكرمهم عليه ، ولهذه الناحية دليل خاص يدل عليها ، وإن شئت فاسمعه ، قال صلى الله عليه وسلم (آتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك) رواه مسلم والامام أحمد ، فهاهو ذا خازن الجنة الملك الكريم سيعترف فى صراحة أنه محظور عليه أن يفتح باب الجنة لأحد قبله صلى الله عليه وسلم ، إذن هو سيد أولياء ربه الذين أعدلهم دار الكرامة بلا نزاع ، ولولا ذلك ما صدر ذلك الأمر الالهى بهذا الحظر ، ومعروف أن لفظ (أحد) عام يشمل أفراد الانس والملائكة والجن فردا فردا لأنه نكرة بعد نفى ، وهو يقضى أن لا يدخل الجنة واحد منهم إلا بعده صلى الله عليه وسلم تنزيلا للناس منازلهم ، ومن يقدر الناس ويعطى كل امرىء منهم ما يناسب قدره إلا ربهم المحيط بما هم عليه من قول وفعل واعتقاد ، ولعل سائلا يسأل هنا فيقول : نحن نسمع القرآن يقول فى أهل الجنة (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) فيفهم القرآن أن أهل الجنة إذا ذهبوا إليها لدخولها ووصلوا إليها يجدون أبوابها مفتحة إكراما لهم وبعدا بهم عن أن يقرعوا الأبواب ويقفوا حتى يفتح لهم ، هذا ما يدل عليه القرآن ، أما الحديث الذى معنا فيدل على أنه صلى الله عليه وسلم يقرع باب الجنة ويسأل عن نفسه من الخازن يجيب بتعريف نفسه ، وذلك

غير القرآن ، فكيف هذا وظاهره التنافى ؟ والجواب عن هذا بيّن كل التبين ولا تنافى ، وقرعه صلى الله عليه وسلم باب الجنة وسؤاله وجوابه إنما يقصد به إظهار قدره صلى الله عليه وسلم بين جميع العالمين ، فهو قرع ينطوى على إكبار وإعظام له صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك القرع ما كان ذلك السؤال الذى أفهم جوابه أن حضرته صلى الله عليه وسلم سيد أهل السعادة أجمعين ، ومن أين كان يعلم ذلك أهل السعادة لولا ذلك الجواب لذلك السؤال الذى لم يتجه إلا بعد ذلك القرع الذى ما كان إلا لأن باب الجنة مغلق، ثم بعد ان يفتح باب الجنة له صلى الله عليه وسلم لدخوله أول الداخلين تترك أبوابها مفتوحة حتى إذا جاءها أهل السعادة لدخولها وجدوها كذلك كما يقول القرآن ، ومن هذا يتبخر السؤال ويتبين أن لا قيمة له رغم ما يلمحه السامع من اتجاهه فى بادىء النظر .

٢١ — هل درجته صلى الله عليه وسلم فى الجنة أعلى درجاتها ؟

ومن تلك النواحى الكريمة أن درجته صلى الله عليه وسلم فى الجنة أعلى درجاتها ليس فوقها درجة ، بل هى أرفع الدرجات، وذلك معلوم أيضا من منزلته صلى الله عليه وسلم عند ربه ، ولو لم يرد على ذلك دليل خاص لحكم به ذوو القلوب دون أن يترددوا فيه ، وكيف ترضى حكمة مولانا الحكيم العليم ان يكون صلى الله عليه وسلم بمنزلة فى الجنة فوقها منزلة وهو أشرف الخلق وأفضل العالمين ، إن ذلك لا يكون منه تعالى أبدا وهو الذى يجازى العاملين كلا على قدره، ولا يسند اليه من الكرامة إلا ما يناسب مقامه ، وإذن كيف يسند لذوى الأقدار الرفيعة ما هو

دون مايسنده لذوى الأقدار التى تنحط عن تلك المقامات ؟ وكيف يجعل مخلوقا كائنا من كان فوق عبد هو تعالى أفهمنا أنه عنده أرجح من جميع من خلق ؟ ذلك لا يكون أبدا ، ذلك نقوله تقديرا لدرجته صلى الله عليه وسلم فى ذاتها دون أن نلتفت إلى دليل خاص ، وإن أبى القارىء إلا دليلا خاصا فليسمع ، قال صلى الله عليه وسلم (الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة فسلوا الله أن يؤتينى الوسيلة) رواه أحمد بسند صحيح ، وليس هذا المقام بالمقام الذى تتصور العقول سواه له صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء وعد فخم لمن يسأل هذه الوسيلة له صلى الله عليه وسلم بعد الانتهاء من الآذان ، وفى ذلك الوعد قال صلى الله عليه وسلم (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة) رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد ، وفيه أيضا قال صلى الله عليه وسلم (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ثم صلوا علىّ فانه من يصلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة) رواه مسلم وأبو داد والترمذى والنسائى والامام أحمد ، وهذه الرواية الأخيرة تفهم أن ذلك المقام له صلى الله عليه وسلم ، نقول ذلك ونحن نسمعه صلى الله عليه وسلم يطلب منا أن ندعو له به ، وذلك أنه يقول فى هذه الرواية (فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا

هو) فهل يرجو صلى الله عليه وسلم لنفسه شيئا وهو يشك فى هل هو له أم لغيره ؟ وهل تتصور العقول أنه صلى الله عليه وسلم يصرح بذلك الرجاء ثم يعطى الله ذلك المقام لغيره صلى الله عليه وسلم مع أنه يرجوه لنفسه ؟ فيكون فى ذلك مافيه بالنسبة لخاطره الشريف صلى الله عليه وسلم ، على أن مقتضى أنه صلى الله عليه وسلم أرفع الخلق مكانة عند ربه أن يكون أرفع الناس درجة فى دار كرامته سبحانه وتعالى ، وفى طلبه صلى الله عليه وسلم من أمته أن يسألوا له هذا المقام ما يصرح أن للفاضل أن يطلب الدعاء من المفضول ، ويصرح الوعد المذكور على الدعاء له صلى الله عليه وسلم بذلك المقام - أن دعاءنا له صلى الله عليه وسلم نافع لنا نفعا عظيما ، وقد سبق التصريح بالنفع الذى سيعود علينا من دعائنا له صلى الله عليه وسلم بأن يصلى ربنا ويسلم عليه ، فاعلم ذلك حق العلم

٢٢ — هل تدخل أمته صلى الله عليه وسلم الجنة قبل دخول كل الامم ؟

ومن هذه النواحى دخول أمته صلى الله عليه وسلم الجنة قبل جميع الامم ، ولعلك تقول كيف يكون هذا من نواحيه صلى الله عليه وسلم وهو لغيره ؟ والجواب عن هذا أن أمته لم تصل إلى هذه الدرجة إلا لانها أمته ، فكرامتها كرامته بلا نزاع ، لهذا جعلت كرامتها من نواحيه صلى الله عليه وسلم ، وتقدم هذه الأمة على غيرها فى دخول الجنة يستفاد مما صرح به القرآن من أنها خير أمة أخرجت

الناس ، فمقتضى هذه الخيرية أن لا تسبقها أمة فى دخول تلك الدار الكريمة ، ولو سبقتها أمة ما كانت أفضل الأمم ، وقد صرحت الأحاديث الصحيحة بذلك أيضا ، فقد روى البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم (الجمعة) الذى اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع ، غدا (السبت) لليهود ، وللنصارى بعد غد (الاحد)

٢٣ — هل يدخل الجنة من أمته صلى الله عليه وسلم سبعون ألفا بلا حساب مع كل ألف سبعون ألفا؟

ومن تلك النواحى أن أمته صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة منها سبعون ألفا بغير حساب ، ومع كل ألف سبعون ألفا أى أربعة ملايين وتسعمائة وسبعون ألفا حاصلة من ضرب السبعين عدد الآلاف الذين يدخلون الجنة فى السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة مع كل ألف ، وبعد ذلك يضاف السبعون ألفا الأصليون إلى حاصل الضرب ، وقل فى هذا ماقلته قبلا من أن هؤلاء لم يكرموا هذا الاكرام إلا لنسبتهم اليه صلى الله عليه وسلم

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال (عرضت على الامم فأخذ النبى يمر معه الأمة والنبى يمر معه النفر والنبى يمر معه العشرة والنبى يمر معه الخمسة والنبى يمر وحده فنظرت فاذا سواد كثير قلت يا جبريل

هؤلاء أمتي قال لا ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فاذا سواد كثير قال هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب،قلت ولم قال كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون . فقام إليه عكاشة بن محصن فقال ادع الله أن يجعلني منهم. قال اللهم اجعله منهم .ثم قام إليه رجل آخر قال ادع الله أن يجعلني منهم ، قال سبقك بها عكاشة) ورويا أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال (يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفا تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر) وروى الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال (وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربي) ، وهذه الحثيات كناية عن تفضله سبحانه وتعالى بادخال أناس الجنة بلا حساب غير من تقدموا ، يتفضل بذلك مرة ثم أخرى ثم أخرى ، ولا يعلم أحد سواه عدد من يدخلهم بلا حساب في كل مرة من تفضلاته الثلاث ، وهذا والله أرجى بكثير جدا من السبعين ألفا ومع كل ألف سبعون ألفا أخرى ، فان هذا تحديد أما ذلك فلا تحديد فيه ، ونحن نعلم حق العلم ما يعني بمثل هذا التعبير إذا عبر به أي كريم فضلا عن رب الكرام ومانح ما لهم من كرم وما لهم من مكرمات ، اللهم اجعلني منهم يا أرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين ، بجودك الذي لا يحد اجعلني منهم يا مولاي ، بحرمة سيد خلقك عندك ، وبحرمة كل حبيب لك اجعلني منهم ياغياث المستغيثين

٣٠ — هل هذه الأمة ثلثا أهل الجنة من جميع الأمم الماضية

ومن تلك النواحي أن أمته صلى الله عليه وسلم لو نسب أهل الجنة منها لأهلها من جميع الأمم لكانت النسبة واحدا من جميع الأمم واثنين منها وحدها ، ولعلك تتعجب من هذا : لا تتعجب واسمع ما يدل على ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم (أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم) . رواه الترمذى ، ولا تنافى بين هذه الرواية وبين ما رواه الشيخان والترمذى عن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة نحوا من أربعين رجلا فقال أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة قال قلنا نعم ، فقال أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فقلنا نعم ، فقال والذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم فى أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأحمر) ، وقلنا لا تنافى مع أن هذه تقول النصف وتلك تقول الثلثان لأن المزيد من فضل الله لا يستغرب بل هو المألوف المعروف ، وإذن ليس بغريب أن يتفضل الله على نبيه أولا فيجعل أهل الجنة من أمته النصف ، ثم يزيده من فضله فيرفع أولئك من النصف إلى الثلثين ، ومن هذه النسبة تتبين قيمة أن هذه الأمة خير الأمم تبينا ظاهرا ، كيف لا وهى أمة واحدة جاءت فى آخر الزمان إذ شاب الدهر وشاخ ، وتلك أمم لا يعلم عددها إلا الله تعالى استقبلت الزمان فى

شبابه وفى فتوته ومع ذلك عدد أهل الجنة منها ذلك القدر الذى هو الثلثان ، وعدد أهل الجنة من كل تلك الأمم هذا القدر الذى هو الثلث فقط ، فليعلم حق العلم

٢١ — هل كتابه صلى الله عليه وسلم خير كتاب نزل من السماء

ومن تلك النواحى أن كتابه صلى الله عليه وسلم الذى أوحى إليه خير كتاب نزل من السماء ، وكان كذلك لأن الله تعالى يقول فيه (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) فوصفه ربنا بأنه مهيمن على الكتب قبله ، ومعنى كونه مهيمنا عليها أنه شاهد وأمين وحاكم عليها ، أى شاهد لكل كتبه عز وجلّ انها كتبه قطعا ، ولولا شهادته هذه ماعدت من كتب الله ، وعظيم جدا أن يكون ذلك مركزه من الكتب السماوية ، وأمين عليها أى أنه إذا حكى عنها شيئا فهو كما حكى بدون أى تصرف فى الحكاية يشعر بتبديل أو تغيير ، وحاكم عليها أى قاض بأن مابها إن وافق مايحكى عنها فهو كما أنزل الله ، وإلا كان ذلك دليلا على أن يد اللعب امتدت اليه ، ولهذا قضى على كتابين منها هما التوراة والانجيل بأن مايوجد بأيدى الناس منهما حرّف بأيدى الأحبار والرهبان ، كانوا يكتبون بأيديهم ما يكتبون ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، بل هو كلامهم كتبوه بأيديهم ، وكانوا يتناولون نصوصهما فيتصرفون فى لفظهما تارة وفى معناهما أخرى ، وفى لفظهما ومعناهما فى حال غير ذينك الحالين ، وقد أخبر ربنا بهذا التصرف منهم وذلك التصرف ، وإذا كان كتابنا يهيمن على كل ماتقدمه من كتب الله تعالى

فهو إذن أعمها وأشملها وأتمها بزيادة فيه عظيمة ليست فيها كلها ، وبتلك الزيادة تمت مكارم الأخلاق ، وفى هذه الزيادة يقول صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) رواه أحمد والبيهقى فى الشعب ، وهذا التتميم يفهم أنه كان بتلك الكتب نقص فى مكارم الأخلاق ، فلما بعث هو صلى الله عليه وسلم تممها بدينه الذى جاء به. وفى شخصه الكريم تمثلت أكمل تمثل ، وإنما كان ذلك النقص فى تلك الأديان لحكمة كبرى هى أن النوع الانسانى لم يكن إذ ذاك مستأهلا ولا مستعدا للقيام بكل تلك المكارم ، وفى الوقت الذى بعث فيه صلى الله عليه وسلم كان هذا النوع الانسانى وصل إلى أسمى درجاته العقلية. وبلغ استعداده للفضل الحد الذى أصبح به أهلا لأن يقوم بتلك الزيادة ، ومن هذا البيان يتبين أن ذلك النقص الذى كان فى تلك الشرائع كمال ، وكيف لا يكون كمالا وحى ربنا الحكيم العليم وتشريعه البالغ المنتهى فى باب الحكمة ، كيف لا يكون كمالا وهو تعالى إن سن لقوم ما يسمو عن قابليتهم كان معرّضا لهم لخطر عدم القيام بما كلفوا به ، وإذن كيف كان يعذبهم وهو يعلم منهم أنهم لا بد ان يقصروا بمقتضى ماهم عليه من البعد عما شرع لهم بعدا طبيعيا ، وهل ذلك يناسب فعل من له الحجة البالغة على عباده ؟ حكيم ربنا ، خلق نبيه صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق فللتناسب أكرمه بشريعة هى أكرم الشرائع ، وأتم عليه نعمته فجعل أمته خير الأمم وأكرمها عليه ، فى الوجود اليوم أناس يشعر جليسهم الذى تعوّد الاختلاط بهم وسماع حديثهم — أن توقيرهم وإكبارهم له صلى الله عليه وسلم ليس

بالدرجة التى تناسب قدره صلى الله عليه وسلم ، ليعلم أولئك حق العلم أنهم فى هذا بعيدون عن الحق الواجب بعد الظلمة من النور، أو بعد الغى من الرشاد، فانه صلى الله عليه وسلم أكبر مظهر ظهرت فيه آثار الكرم الالهى كما عرفت من قبل ، فاذا كان أعظم مخلوق عنيت بابرازه العناية الالهية لايستحق منتهى مايتصور من التوقير والاجلال المناسب لقدره ، فانى أخشى أن يجر ذلك إلى الاخلال بالتوقير اللازم لنفس مولانا الخلاق سبحانه وتعالى ، وهل يرضى أولئك الناس أن يظن بهم أنهم يخلون بالتوقير الواجب له تعالى ، وإذا رضوا بهذا فهل يعدّون أنفسهم فى درجة من الايمان تسرهم وتسر أحبابهم ، أما أنا فلا أعدهم فى تلك الدرجة وعندهم أن أجلّ أثر للخلاق الحكيم العليم لايستحق إلا ماهو معروف عنهم من التخفيف فى مبلغ تعظيمه صلى الله عليه وسلم، وان شئت فقل التخفيف الكثير من ذلك ، ليعلم حضرات أولئك الاخوان أن من يعرف الله حق المعرفة يبدو فى نظره أصغر مخلوق له عظيما وعظيما ، لأنه صنعة ذلك العظيم ، وإذن كيف يكون حال أجل وأعظم وأفخم صنع صدر عنه سبحانه وتعالى ، وليعلموا كذلك أن عبد الله حقا هو الذى يعظم من عظمه سبحانه وتعالى، ويحقر من حقره ، أما الوقوف موقف المحاد له سبحانه وتعالى بتخفيف شأن من يعظم، أو تعظيم شأن من يحقر، فماهو من شأن من يعرفون عن أنفسهم أنهم عباد الله

٢٢ — هل سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالدرجة التي يقول فيها للمؤمن سلني ليعطى ما يسأل من حوائج الدارين ؟

ومن تلك النواحي أنه صلى الله عليه وسلم من القرب من ربه بالدرجة التي يقول فيها للمؤمن (سلني فأعطيك) ولعلك تتعجب من هذا وتقول إن الذي يقول سلني إنما هو الذي إذا أراد شيئا كان كما أراد ، وإذن كيف يقف العبد المعروف انه عبد حق المعرفة — هذا الموقف الغريب ، أما أنا فأقول لك هو عبد معروف العبودية لا شك في ذلك ، ومع ذلك قال تلك الكلمة وصحت عنه ، ومعناها في غاية الوضوح وإن كنت أنت لا تفهمه ، وأحب أن تسمع لتفهم ، روى مسلم والطبراني في الكبير واللفظ له عن سيدنا ربيعة بن كعب رضي الله عنه أنه قال (كنت أخدم النبي صلى الله عليه وسلم نهاري فاذا كان الليل أويت إلى باب رسول صلى الله عليه وسلم فبت عنده فلا أزال أسمعه يقول سبحان الله . سبحان الله . سبحان ربي حتى أمل أو تغلبني عيني فأنام ، فقال يوما ياربيعة (سلني فأعطيك) فقلت أنظرني حتى أنظر ، وتذكرت أن الدنيا فانية ومنقطعة ، فقلت يارسول الله أسألك (لفظ (أسألك) ساقط من الحديث في كتابي النهضة الاصلاحية بصحيفة ١٧٢) أن تدعو لي أن ينجيني من النار ويدخلني الجنة ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال من أمرك بهذا ؟ قلت ما أمرني به أحد ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه ، فأحببت أن تدعو الله لي ، فقال إني فاعل ، فأعني على نفسك بكثرة السجود) . إني أرجو من

لايعطى هذا الرسول الكريم حقه من التوقير والتعظيم أن يتأمل هذا الحديث ثم يتأمله ، فانه إن فعل ذلك وجده ناطقا بأن قربه صلى الله عليه وسلم من مولاه وصل به إلى حد أن يقول لأحد أمته (سلنى فاعطيك) كما أسلفنا لك ، ويطلق فى هذا السؤال فلا يفرق بين مسئول ومسئول من حوائج الدنيا أو الآخرة، ولا يفرق بين حاجة صغرى ولا كبرى ، ومع هذا الاطلاق فى المسئول يقول صلى الله عليه وسلم (فأعطيك) ولا يحترس أى احتراس. هو لا يقول له سلنى لأعطيك أنا ما تسأل أخلقه لك خلقا وأوجده لك إيجادا ، هو لا يقول ذلك لأنه أول من يعلم حدود العبيد ، وأول من يعلم أن ليس بيد عبد شيء ولا له من الخلق والايجاد حظ وإن كان ذلك العبد هو صلى الله عليه وسلم، بل هو صلى الله عليه وسلم الذى علم غيره ذلك، وإنما يقول هذه الكلمة التى لاحد لها ثقة منه بأن ربه لا يرد له سؤالا ، بل يجيبه فيما يطلب ، لا بل يسارع فى هواه باجابة ما يعلم عز وجل أن قلبه يحبه ويميل إليه وإن لم يسأله . عرفت ذلك السيدة الصديقة زوجه رضى الله عنها من عادة ربه معه وقالت له (ماأرى ربك إلا يسارع فى هواك) لما نزل قوله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) رواه البخارى ومسلم وغيرهما، وعرف ذلك سيدنا ربيعة رضى الله عنه فانتهز هذا الوعد الكريم (سلنى فأعطيك) وسأله غاية ماتتعلق به الهمم، وتطمح إليه النفوس، وتنتهى إليه الآمال. وهو النجاة من النار ودخول الجنة، سأله أن يدعو له بذلك وهو فاهم أن دعاءه لا يرد ، ولهذا يقول له (وأنت من الله بالمكان الذى أنت منه) أى بالدرجة التى تجعل ربك يجيب

طلبك منه مهما عظم هذا الطلب ، فكأن ما يسأله يراه فى يده عليه الصلاة والسلام ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لسيدنا ربيعة (سلنى فأعطيك) وسارع رضى الله عنه فطلب طلبه ، وقال صلى الله عليه وسلم لسيدنا ربيعة (إنى فاعل) بأداة التأكيد ، أى داع لك هذه الدعوة ولا بد ، وإذن اعتبر نفسك من الآن ناجيا من النار وداخلا الجنة بلا سابقة عذاب مكافأة لك على إخلاصك العظيم لنبيك ولزومك خدمته ليلك ونهارك ، ولفظ مسلم فى روايته هذا الحديث أبلغ من الرواية السابقة. فان سيدنا ربيعة رضى الله عنه قال فى تلك الرواية يذكر سؤاله بما لفظه (أسألك مرافقتك فى الجنة) وهذه الرواية ليس فيها طلب الدعاء بالنجاة من النار وبدخول الجنة ، بل الذى فيها طلب مرافقته صلى الله عليه وسلم فى الجنة ، كأن هذه المرافقة يملكها صلى الله عليه وسلم ، لم يتحرج سيدنا ربيعة من هذا الطلب ، ولم ير رسوله صلى الله عليه وسلم أنه أبعد فى طلبه وقال مالا يجوز قوله ، ولذلك لم ينكر عليه السؤال ، وكل الذى كان منه أنه رأى أن لا يدعه متكلا على وعده صلى الله عليه وسلم باجابة طلبه فأمره أن يكثر من الصلاة التى بها السجود ليكثر السجود بكثرتها ، وإذا جاز أن يسأل المؤمن هذا الرسول الكريم مرافقته فى الجنة وهى منتهى السعادة فلا مانع أبدا أن يسأله الشفاعة أو المغفرة لذنوبه ، لأن كلا من هذين سبب فى دخول الجنة فهو أقل من دخول الجنة ، وبالأولى أقل من دخولها بقيد مرافقته صلى الله عليه وسلم ، وإذا جاز سؤال الأعلى جاز سؤال الأدنى بلا تردد ، وبهذا يفصل فى مسألة يتكلم فيها بعض الاخوان وهى : هل يجوز

أن يطلب من المخلوق مالا يقدر عليه إلا الله تعالى أم لا يجوز؟ والحديث الصحيح الذى معنا يقول إن ذلك يجوز متى كان على المعنى الذى بيناه ، ولست أدرى أن الدنيا تضم بين أطرافها مسلما يسأل مخلوقا مثل ذلك السؤال وهو يقصد منه أن يخلق له مايسأل ، لأن الفرق بين الخالق والمخلوق مما جبلت عليه الفطر ، وهنا نقول إن بعض العامة يتكلمون مع أحباب الله تعالى بمثل هذا الذى تكلم به سيدنا ربيعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقصدون ماكان يقصد ، وإذن لاحرج عليهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يفتى هذه الفتوى ، وإذن فليفرح بعض الاخوان بهذه الفتوى ولا يكفروا الناس لأمر لا شىء فيه أبدا ، ولست أمنعهم من الحكم بالكفر إذا شقوا عن القلوب فعلموا أن الناطق يؤله حبيب الله ويعتقد أنه يخلق مايسأله خلقا كما يخلق رب العالمين ، وقبل أن ننتهى من هذا الموضوع نلفت القارىء إلى مايتضمنه طلب سيدنا ربيعة ، رأى رضى الله عنه أن الله تعالى أكرمه فى الدنيا بخدمة رسوله صلى الله عليه وسلم وملازمته له ملازمة أشد بكثير من ملازمة الرفيق لرفيقه ، فطمع رضى الله عنه أن ينال هذه المرافقة فى الآخرة ، فطلب من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل له مولاه أن يكرمه بهذه المرافقة فى الآخرة كما أكرمه بها فى الدنيا ، فليعلم ثم ليعلم ، ولعلنا نفرد بالكتابة كلمة نذكر بها بعض دعواته صلى الله عليه وسلم وإجابة مولاه له دعاءه بعين ما طلب صلى الله عليه وسلم ، ويا ليت القارىء يطيل التفكير فى قول الصديقة رضى الله عنها له صلى الله عليه وسلم

(ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك) وفى قوله صلى الله عليه وسلم لسيدنا ربيعة (سلنى فأعطيك) إنه إن أطال التفكير فى ذلك عرف حقا من هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقره ثم وقره وأكبره ثم أكبره إن كان ممن لا يعطونه حقه من ذلك صلى الله عليه وسلم، وكلتا الكلمتين فى حديث صحيح ليس ليد أن تمتد إليه بأى خدش

٢٣ — قسم رب العالمين بحياته صلى الله عليه وسلم

ومن تلك النواحى ما ذكره ربنا تعالى فى كتابه العزيز من قسمه — وهو رب العالمين — بحياته صلى الله عليه وسلم ، وماصدر منه عز وجل هذا القسم بحياة أحد غـــيره من العالم العاقل ، وإن خالطك ريب فى ذلك فأمامك الكتاب ، وأمامك السنة ، وأمامك ما كتب الناس عن الناس ، تقدم حضرتك إلى استيعاب كل ذلك قراءة وفتش فيه ثم فتش ، وإنى أبشرك من الآن أنك ستنتهى من تفتيشك ذلك بنتيجة هى ما قلناه لك ، ولعلك تفهم أن اختصاصه تعالى حضرة نبيه صلى الله عليه وسلم بالقسم بحياته وحده بين جميع العالم العاقل تصريح منه عز وجل أن منزلته صلى الله عليه وسلم عنده عز وجل ليس بجانبها منزلة يصح أن يقال إنها تطاولها وتزاحمها فى فضلها ونبلها لديه عزت كلمته ، وإنى أرجوك ياحضرة القارىء أن لا يقع فى قلبك أن المتأخرين من هذه الأمة هم وحدهم الذين التفتوا إلى إجلال حضرة مولانا رسول الله صـــلى الله عليه وسلم وتعظيمه ، وبذلك تكون سرت وراء قوم لا يرون من الصواب ولا من التوفيق أن يحوم المرء حول أحباب الله تعالى بما يفهم أن له بهم

تعلقا او بودهم ولعا ، وأما المتقدمون فتفهم انهم بريئون من ذلك منزهون عنه كما يعبر أولئك القوم ، لا يقع فى نفسك هذا فان المتأخرين ماعظموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإخوانه الأنبياء وورثتهم صالحى عباد الله تعظيما اخترعوه من عند أنفسهم بلا بينة يستندون إليها ، بل رأوا فى الوحى الالهى مارأوامن آيات بينات لا يمترى فيها مؤمن بالله وبوحيه ، إن هذه الكلمة التى بين يديك الآن لأحد المتأخرين،فهل هى مماينبغى أن يبرأ منها المؤمن وينزه نفسه عما تتضمن؟ إن من يقول ذلك لا أتردد فى الحكم عليه حكما هو أقسى الأحكام التى تصدر على مسرف ، وكيف لا أحكم عليه بذلك وهو يصرح بأن كتاب الله وسنة رسوله يجب التبرؤ منهما والتنزه عنهما ، وإذا كان حب أحباب الله تعالى والشغل بذكر ما فضلهم الله به وخصهم بالانعام به عليهم مما لا يعجب فانى أسأل ربى أن يغمرنى فيه غمرا ، فان المرء مع من أحب وممن أحب على أى مذهب كانوا ، هـذا حكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأما المتقدمون من هـذه الأمة فكانوا والله العجب العجاب فى حبه صلى الله عليه وسلم وإجلاله ، ولو رأى حضرة القارىء كيف كان إجلال أصحابه صلى الله عليه وسلم له لرأى مايعجز القلم عن بيانه واللسان عن التعبير عنه ، إنهم لوكانوا رضى الله عنهم كما ينسب إليهم ما كانت حالتهم معه صلى الله عليه وسلم كما تحكى عنهم الصحاح فضلا عن غيرها من الكتب التى لم تلتزم ما التزمه أرباب الصحاح ، بل تذكر مايبلغها عن مظان رواية العلم ، لقد كان أولئك الأصحاب رضى الله عنهم يجمعون عرقه صلى الله عليه

وسلم فى أوقات تسمح بذلك وتساعد عليه ويضعونه فى القارورات يتدهنون به ويطيبون به أبناءهم وهو عندهم دونه المسك، وكان صلى الله عليه وسلم إذا توضأ تناهبوا الماء الذى ينفصل عن أعضائه الشريفة صلى الله عليه وسلم، حتى كانوا يضنون على الأرض أن تسعد بقطرة من ذلك الماء، وماذا يفعلون به؟ إنهم كانوا يمسحون به أبدانهم يتبركون به، وكان أحدهم إذا ظفر بقطعة من ثوب له صلى الله عليه وسلم أو بشعرات من شعره صلى الله عليه وسلم يوقن أنه وصل إلى مايسمو عن التقدير والتقويم، لا بل كان يعتقد أنه حصل على السعادة كلها، لا بل كانوا ينسون كل شيء ويطمعون فيما لا يقل عن المحال إذا لمحوا شيئا من آثاره صلى الله عليه وسلم، وهذه حادثة تفهمك هذا الذى أظنك فى استغراب عظيم له، مات شيخ المنافقين ورأسهم عبد الله بن أبى بن سلول وكان ولده عبد الله من عظماء الصحابة فسأل حضرة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم قميصه يجعله كفنا لوالده الكافر العظيم الكفر لعله ينفعه فأعطاه له صلى الله عليه وسلم تطييبا لخاطره، ولو أنك سألت هذا الصحابى الكبير هل تنفع الكافر شفاعة أو بركات من ذوى البركات لبادر إلى الاجابة بالسلب لا يمترى فى ذلك؟ لكن الأمر فى إجلاله صلى الله عليه وسلم كان عندهم كما قلت لك ربما أنساهم كل شيء وأطمعهم فيما لا يقل عن المحال، وكانوا لامتلاء قلوبهم بهيبته صلى الله عليه وسلم يجلسون بين يديه بحالة من التوقير لا تبعد إذا قلت إن أحدهم كان لا يستطيع معها أن يملأ عينيه من وجهه صلى الله عليه وسلم، كما أنهم كانوا إذا تكلموا معه صلى الله عليه وسلم تكلموا

بصوت خافت قد يحتاج معه حضرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى استعادة الكلام من المتكلم ليسمعه ، بل وصل بهم إجلاله صلى الله عليه وسلم إلى حد أخاف أن أذكره لئلا يبادر بعض مرضى القلوب بانكاره وهو صحيح ، ومع ذلك أذكره وأنت أمامه مطالب أن تصدقه إن كنت من المسلمين ، كان صلى الله عليه وسلم إذا تفل لا تقع تفلته إلا على يد واحد منهم يشرّف بدنه بمسه بها ، وهم والله الأكياس فى ذلك ، وأعطى أحدهم قدرا من دمه صلى الله عليه وسلم ليهريقه، فماذا فعل به هذا الصحابى الممتاز؟ إنه لم يهرقه بالأرض ولكن ببطنه كان صبه . وأصبح ممتزجا دمه بدم سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، وسمع من البشرى بعد شربه ذلك ما يدع القلوب ترقص طربا وسرورا ، كيف لا وهى تتضمن سعادة الأبد ، وهكذا فعل بعضهم ببوله صلى الله عليه وسلم ، عن أى إجلال يشف هذا يا أيها الأخ ؟ لعلك قائل إن الاجلال الذى يفهمه تصرفهم هذا لا حد له ، بقى ان يقال : قد يخطر على قلب بعض أهل التمرد والفجور أن التصنع قد يكون له دخل فى هذا الاجلال ، فأقول وهل يدوم التكلف طول الحياة معهم ؟ وهل يطّرد هذا التكلف فيهم جميعا لا فرق بين رجل منهم ورجل ولا بين امرأة وامرأة ؟ وافرض ان التكلف دام مدة حياته صلى الله عليه وسلم الدنيوية . فأى سبب كان للاجلال الذى كان بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، ثم هل يمكن ان يصل الانسان فى تكلفه إلى حد أن يجود بحياته مع الجود بأمواله فى سبيل نصره صلى الله عليه وسلم ونصر دينه ، لقد كان أحدهم لا يطيق أن يناله صلى الله عليه

وسلم أى مكروه، ولهذا كانوا يحوطونه فى الحروب يتلقون الرماح والنبال والسيوف فى صدورهم وعندهم ذلك ألذ من كل لذيذ، تقول ألسنة حالهم ومقالهم نحن فداؤك يا رسول الله نحورنا دون نحرك، وذواتنا تنتهى إلى منتهى الشرف الأبدى إذا فازت بالموت دونك، وتسمع المرأة منهم بقتل عــــدد من الرجال هم أقرب الناس إليها وأحناهم عليها ولا عزلها فى هذه الحياة إلا بهم، ففى الوقت الذى تسمع فيه هذا تسأل وماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيخبرونها بسلامته، فتأبى إلا أن تطلب رؤية شخصه الكريم فى لهفة منها على ذلك أى لهفة، فاذا وقعت عينها عليه صلى الله عليه وسلم معافى تبادر بقولها له عليه الصلاة والسلام (كل مصيبة دونك جلل) أى ضئيلة حقيرة لا تنزعج لها نفوس المؤمنين، ولا تهم الفضلاء من العباد، ثم كيف يكون ذلك الاجلال تصنعا وهو صلى الله عليه وسلم يفهمه صادرا منهم عن إخلاص وربه عالم الغيب والشهادة يقره على ذلك وينزل عليه فى كتابه وفى سنته صلى الله عليه وسلم مدحهم يتلى على مر الدهور، هل تجيز غلطه صلى الله عليه وسلم؟ وإن أجزت ذلك عليه صلى الله عليه وسلم فهل تجيزه على من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور سبحانه وتعالى؟ قد كان بينهم رضى الله عنهم فئة متصنعة متكلفة كما تفهم هم طائفة المنافقين ورأوا من الاهوال ما رأوا من كشف الله تعالى حالهم، وهذا القرآن مملوء ببيان ما كانوا عليه وبوعيدهم أشد وعيد سمعه كافر، ولو قرأت سورة المنافقين أو سورة التوبة لعلمت ماذا لقى المنافقون من فضيحة بين

العباد ، ثم إن عجبي طويل ممن يرمى خير أمة أخرجت للناس بأنهم ما كانوا بحال المتأخرين من الأمة فى إجلاله صلى الله عليه وسلم ، فاذا ذكرنا له أمثلة من إجلالهم له صلى الله عليه وسلم خشينا أن يرميهم بالتكلف فى ذلك وعالجنا دفعـــه عن نفسه ، لا تذكروا الصدر الأول أيها النـاس ، دعوهم ودعوا ما كانوا عليه من كمال لا نراه اليوم حتى ولا فى الأحلام ، وخلونا غارقين فى أوحال هذا الزمان الذى الوجود بين السـواد الأعظم من أهله نكبة من النكبات الشديدة على دين المرء وعلى عاداته وعلى دنياه ، إن ذلك العهد الذى لا يعرف قدره أبناء هذا الزمان كان يريك أناسا لا تعدو الحق إذا قلت إن الملائكة دونهم ، كنت تتحدث مع الواحد منهم فى أنس به أى أنس فاذا تخلل الـكلام ذكر حضرة رسـول الله صلى الله عليه وسلم نزل به من الغم عليه ومن الأسى والحسرة على فراقه ما يتغير معـه ويضطرب ويصير بحالة الذى ليس بينك وبينه أدنى اتصال ولا معرفة ، رضى الله عنهم وأماتنا على نعمة محبتهم والحرص على التخلق بأخلاقهم ، لتعـلم أيها الأخ أن كثيرا مما يدندن حوله المتأخرون منا فى قدره صلى الله عليه وسلم لم يصل إلينا إلا من طريق أولئك المتقدمين ، وهو أشبه بذرة بجانب العـالم كله بالنسبة لمـا كانوا عليه له صلى الله عليه وسلم من إجلال وتقدير ، ولهذا كانوا لا يجرءون على التقدم إلى ميدان الكلام عنه صلى الله عليه وسلم كما قلنا سابقا ، فمعرفتنا له صلى الله عليه وسلم وتقديرنا لقـدره بالنسـبة لمعرفة أولئك السلف وتقديرهم شىء لا يذكر ،

ولعلنا فى هـذا أشبه برجل فاقد البصر توصف له الشمس التى تملأ الـكون نورا فيحيط بقدرها ذلك الرجل الـكفيف البصر بناء على ذلك السماع ويعرف لها منزلتها فى الـكون وشدة نفعها للعالم ومبلغ إحتياجه إليها معرفة سـندها فقط ماوصل إليه من المبصرين الذين يشاهدونها بأعينهم يسطع نورها على الموجودات حتى لو أراد أحدهم أن ينظر إليهـا يريد اكتناه ذاتهـا لـكفته عن ذلك قوة أنوارها كفا لا اختيار له فيه ، ولنرجع إلى الـكلام عن قسم الله تعالى بحياته صلى الله عليه وسلم فنقول : قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى هذا القسم (ماخلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليـه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) رواه عنه ابن أبى شيبة والحرث ابن أبى أسامة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنـذر وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل ، وقد روى هـــذا مرفوعا إلى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى ابن مردويه أنه صلى الله عليه وسلم قال (ماحلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد قال لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) أى فى غفلتهم يتحيرون ويترددون ، وحياته صلى الله عليه وسلم جديرة والله بأن يفردها خالق الخلق بالقسم بها ، فان آثارها فى هذه الدار وفى الدار الثانية أفخم آثار صدرت عن مخلوق أى كان سببا فيها ، كيف لا وكلتا الدارين تشهد صادقة بأن عينها ماوقعت على مثل تلك الآثار ولا على قريب منها ، وإن شئت أن تتحقق هذا فارجع فى هذه الـكلمة إلى نسبة أمته من أهل الجنة

مجتمعين، إن الأنبياء السابقين عليه صلى الله عليه وعليهم وسلم لا يحيط بعددهم إلا الله، فانه لم يرد حاصر لهم يعتمد المؤمن عليه، وقد أخبرنا القرآن أن ربنا لم يقصصهم جميعا عليه صلى الله عليهم كلهم وسلم، كما أنه أخبر أن ربنا تعالى أهلك كثيرا من القرون ولم يحصرهم ولم يذكر لنا أخبارهم مع أنبيائهم، ومعلوم أن الأنبياء هم معلمو البشرية في جميع أدوار هذا الوجود، فماذا أنت قائل إذن في هذه النتيجة التي أظهرها العدل الالهي لتعليم هؤلاء المعلمين كافة، النتيجة التي تقول ان هذا المعلم الاخير صلى الله عليه وسلم له وحده الثلثان من الفائزين برضوان ربنا وبما قدم لهم من كرامة — وان للجميع الثلث فقط من أولئك الفائزين، فكر في هذه النتيجة أيها الرجل الموفق وقدر العاملين بأعمالهم وإن لم تسمع من رب العالمين كلمة واحدة في شأنه صلى الله عليه وسلم سوى هذه النتيجة.

٢٤ — هل قد يقول النبي صلى الله عليه وسلم للشيء كن فيكون كما قال؟

ومن نواحيه صلى الله عليه وسلم ناحية ينبهر المرء أمامها إذا عرفها، لأنها ليست بمعهودة في الخلق، ولكنها مظهر من مظاهر الألوهية، وهي أنه صلى الله عليه وسلم يقول للشيء كن فيكون كما أمر صلى الله عليه وسلم، ولعلك في عجب من هذا أي عجب، لا تتعجب أيها الأخ واسمع ما يدل عليه، روى الحاكم وصححه والبيهقي والطبراني عن سيدنا عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال (كان الحكم ابن أبي العاص يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاذا تكلم النبي

صلى الله عليه وسلم اختلج بوجهه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات) هذا الرجل الذى هو الحكم ابن أبى العاص اتخذ هذه العادة عندما كان يتكلم النبى صلى الله عليه وسلم ، يختلج هو بوجهه أى يضطرب به ويهتز سخرية بالنبى صلى الله وسلم ، ليس ذلك منه عادة اضطرارية تحصل منه قهرا ، إنها لو كانت كذلك ما أغضبت الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ففى يوم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلج الرجل كعادته ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (كن كذلك) أى دم على هـــذا الاختلاج لا تفارقه ولا يفارقك مادمت حيا ، فكان الرجل كذلك حتى فارقته الحياة لا يفارقه اختلاجه ، وهى من المعجزات الفريدة التى لم تحصل على يد أى نبى من الأنبياء ، أبى الله تعالى أن يقول نبيه صلى الله عليه وسلم لشىء كن ولا يكونه له كما طلب صلى الله عليه وسلم ، لانه يعلم منه أنه بهذه الكلمة ينتصر به عز وجل على ذلك الرجل الساخر ، فنطقه صلى الله عليه وسلم بلفظ (كن) ليس له معنى إلا ما بيناه ، لا أنه صلى الله عليه وسلم يريد تكوين ذلك الاختلاج بنفسه هو ، ان هذا لا يصدر من أى امرىء به ذرة من العقل ، فكيف يصدر من ذى عقل أرجح من عقول العالم كله ؟ بل كل عقول العالم كذرة من هذا الوجود بالنسبة لعقله صلى الله عليه وسلم ، ومع أن عقله هكذا دينه أرجح من دين العالم كله أيضا ، وإذن ليس بمعقول أن يجرى فى خاطر من هذا قدره تكوين شىء بنفسه ، إنما هو فزع منه صلى الله عليه وسلم إلى مولاه القاهر القادر أن يعامل

ذلك الرجل بما طلب صلى الله عليه وسلم، والمهم من الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أحس من مقامه عند ربه أنه لو قال هذه الكلمة لحقق له ربه مقتضاها ، فقالها لا يتردد فى أن المقصود منها يكون ، وإلا اجترأ عليه أمثال ابن أبى العاص ، ويأبى الله إلا أن يحمى نبيه صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق وأشباهه ، وهو مقام يصعب تصوره على الكافة إلا من لطف ذوقه ورق شعوره الدينى وعلا استعداده الفطرى ،
لا تظن أن هذه الحادثة هى الوحيدة فى هذا المقام ، لا تظن ذلك واسمع حادثة أخرى ، روى البيهقى عن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب يوما ورجل خلفه يحاكيه ويلمصه (أى يريد عيبه) فقال النبى صلى الله عليه وسلم (كذلك فكن)، فرفع إلى أهله فلبط به شهرين (أى صرع وسقط إلى الأرض ومكث شهرين مصروعا فى غيبوبة) ثم أفاق حين أفاق وهو كما حكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس ببعيد أن يكون الله عز وجل جعل من مقامات نبيه صلى الله عليه وسلم أنه إذا قال فى بعض الأوقات لبعض الأشياء كن كونه تعالى له وجعله ينفعل كما يريد صلى الله عليه وسلم بمجرد أن ينطق بهذا اللفظ الذى لم نسمع به إلا فى مثل قوله عز وجل (إنما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون) ، وها نحن أولاء قد سمعناه فى هذين الحديثين يصدر من سيد خلقه صلى الله عليه وسلم ، ونستطيع أن نؤكد أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن الله تعالى جعل هذا المقام من مقاماته ، ولهذا استساغ لنفسه أن ينطق بذلك اللفظ صلى الله عليه وسلم ، نعم نطقه صلى الله عليه وسلم به دليل

أى دليل على أنه صلى الله عليه وسلم أكرم بهذا المقام على المعنى الذى بيناه ، والله يختص برحمته من يشاء ، ويؤتى فضله من يريد ، لا مانع لما أعطى ، فاعلم ذلك حق العلم :

٢٥ — هل أخبر ربنا الأمم السابقة باليوم والعام الذى ينتقل صلى الله عليه وسلم فيه إلى الرفيق الأعلى؟

ومن نواحيه صلى الله عليه وسلم أن ربه سبحانه وتعالى أخبر من تقدمنا من الأمم باليوم والعام الذى ينتقل صلى الله عليه وسلم فيه إلى الرفيق الأعلى ، وليس هذا من غير المألوف المعروف من عنايته عز وجل بحضرة خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم لك فى هذه الكلمة ان ربه عز وجل لم يتركه مجهولا فى فترة من هذا الوجود ، فغير غريب منه تعالى أن يعلم الأمم قبلنا باليوم الذى يبارح فيه هذا الوجود إلى وجوده البرزخى الذى يقوى عن هذا الوجود بدرجات كثيرة ، ودونك ما يدل على ما ذكرنا ، روى ابن سعد عن الحارث بن عبد الله الجهنى قال (بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى اليمن ولو أظن أنه يموت لم أفارقه ، فأتانى الحبر فقال إن محمدا قد مات ، فقلت له متى ؟ قال اليوم ، فلو ان عندى سلاحا لقاتلته فلم أمكث إلا يسيرا حتى أتى كتاب من أبى بكر بذلك فدعوت الحبر فقلت من أين تعلم ذلك ؟ فقال انه نبى نجده فى الكتاب أنه يموت يوم كذا وكذا قلت وكيف نكون بعده فقال تستدير رحاكم إلى خمس وثلاثين سنة مازاد يوما) وروى البيهقى عن سيدنا جرير قال (لقينى حبر باليمن ، فقال إن كان صاحبكم نبيا فقد مات يوم

الاثنين) ، وروى البيهقى أيضا عن كعب بن عدى قال أقبلت فى وفد من أهل الحيرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فعرض علينا الاسلام ، فأسلمنا ثم انصرفنا إلى الحيرة ، فلم نلبث أن جاءتنا وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتد أصحابى وقالوا لو كان نبيا لم يمت ، فقلت قد مات الأنبياء قبله ، وثبت على إسلامى ، ثم خرجت أريد المدينة ، فمررت براهب فأخبرته ، فأخرج سفرا فصفح فيه فاذا بصفة النبى صلى الله عليه وسلم كما رأيته ، وإذا بموته فى الحين الذى مات فيه ، فاشتدت بصيرتى فى إيمانى وقدمت على أبى بكر فأعلمته) وروى البخارى عن سيدنا جرير أيضا قال (كنت باليمن فلقيت رجلين من أهل اليمن ذا كلاع وذا عمرو ، فجعلت أحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا لى إن كان ما تقول حقا فقد مضى صاحبك على أجله منذ ثلاث ، فأقبلت وأقبلا معى حتى إذا كنا ببعض الطريق رفع لنا ركب من قبل المدينة ، فسألناهم فقالوا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، من يستغرب أى عناية من الله تعالى بهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو الذى لولاه ما خلق الله هذا الوجود علويه وسفليه ، بل ولولاه ما خلق الوجود الثانى الذى هو الأبدى ، ولا تعجب لهذا فقد تقدم لك ان الله تعالى قال لسيدنا آدم (ولولا محمد ما خلقتك) ، ولا يخفى عليك أن آدم هذا هو أبو البشر الذين يخبر القرآن أن لهم خلق الله ما فى السموات وما فى الأرض ، ولهم سخر ذلك ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وهم الذين بهم تعمر الآخرة ذات الحياة التى لا تنتهى ، إما فى دار النعيم وإما فى دار العذاب الأليم . وإذا كان الأمر هكذا فمن العادى جدا أن

يخبر الله تعالى الأمم السابقة بكل أطواره صلى الله عليه وسلم، قبل وجوده وبعد وجوده، قبل بعثته وبعدها، وما يلاقى من الناس، وما ينتج جهاده صلى الله عليه وسلم فى أمته؟ ومتى يبتدئه المرض؟ وفى أى يوم يغادر هذه الحياة الدنيا؟ ولعلك لا تستغرب أن يخرج الراهب كتابا فيه صفته صلى الله عليه وسلم، فقد قدمنا لك أن علماء الأمم السابقة عنوا به صلى الله عليه وسلم عناية عظيمة، وألفوا من الكتب فى شأنه صلى الله عليه وسلم ما ألفوا، حتى رأى سيدنا كعب من تلك الكتب أحدا وسبعين كتابا، وإذن من العادى جدا كما قلنا أن يخبر الأحبار والرهبان بموته صلى الله عليه وسلم ويعينوا اليوم الذى مات فيه صلى الله عليه وسلم، فاعرفه ثم اعرفه.

٢٦ — أى فائدة فائدة هذا البحث

قد يسأل هنا سائل فيقول: إن فعل العقلاء لابد له من فائدة تترتب عليه، وأنت تكلمت فى هذه الرسالة عن مبلغ فضل حضرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، فهل لهذا الكلام من فائدة؟ إن هذا السؤال قد يخطر على بال بعض الناظرين، وإنى أقول فى جوابه إن فائدة هذا البحث ليست أى فائدة، بل هى فائدة وحيدة بين جميع الفوائد، لا تدانيها فى عظمتها أى فائدة لأى عمل يباشره عاقل، كيف لا وهى سعادة الحياتين حياة العمل وحياة الجزاء، فانه لا يخفى أن المرء إنما تحبه القلوب إذا عرفت له شيئا من الفضل، وبمقدار ما تعرفه له من فضل يكون قدر حبها له، هذا شىء من البداهة بالدرجة التى لا يخالف فيها إنسان، وبناء على هذا إذا عرفنا نحن معشر الأمة

المحمدية أن حضرة نبينا صلى الله عليه وسلم إليه ينتهى فضل الخلق، ليس بينهم من يسمو إلى رتبته صلى الله عليه وسلم، بل لو اجتمع كل ما للعالمين من فضل لكان دون فضله صلى الله عليه وسلم - لو عرفنا ذلك أحببناه صلى الله عليه وسلم حبا فريدا لا يزاحمه فى نفوسنا حب لأى مخلوق، والحب له أثره المعروف، وهو أن المحب يسارع إلى فعل ما يرضى محبوبه ويبعد البعد كله عما يغير قلبه عليه. فاذا أحب المؤمن حضرة صفوة الخلق صلى الله عليه وسلم الحب الذى يناسب قدره ذلك بادر ولابد إلى فعل كل ما جاء بالأمر به، وأبى الاباء كله فعل أى منكر نهى عنه صلى الله عليه وسلم، ولا يتردد عاقل فى الحكم على من هذا حاله بانه من أهل السعادة فى الدنيا والآخرة كما قلنا لك، بل لأكثر من هذا يسمو الحب بصاحبه كما علمتنا شريعتنا الغراء، يسمو به إلى حد أن يلحقه بدرجات أناس ليس هو من طرازهم فى عملهم الصالح، فعن سيدنا عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما تقول فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم، فقال المرء مع من أحب. رواه البخارى ومسلم، وعن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله متى الساعة؟ قال ويلك وما أعددت لها؟ قال ما أعددت لها إلا أنى أحب الله ورسوله، قال أنت مع من أحببت؟ قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الاسلام فرحهم بها. رواه البخارى ومسلم أيضا، وإذن فائدة تحى هذا أن تكون أنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة، لانك بعد أن تحيط بما قلناه فيه صلى الله عليه وسلم لا يسعك إلا أن تنطوى له على أقوى حب ينطوى عليه محب لمحبوب،

وأرجوك هنا أن تفهم حق الفهم أن إخلالك بطاعته صلى الله عليه وسلم فيما جاء به يخدش من دعوى حبك له صلى الله عليه وسلم ، وكلما كان الاخلال أشد كان الخدش أشد ، إن المحب لمن يحب مطيع ،وأرجوك أن تتأمل طويلا فى قول المحب

ولو أمرونى إن أمر على لظى لقلت نعيما فى هواهم وجنتى

وهل ماترى بين عباد الله من تفاوت فى الاستقامة إلا لما بينهم من تفاوت فى حبه صلى الله عليه وسلم ، ولست أقول إن نفع هذا البحث قاصر على حضرات المؤمنين به صلى الله عليه وسلم ، بل لا أشك فى أنه يتعداهم إلى من لم يؤمنوا به ، فانهم إذا رأوا هذا البحث أقل ما يحدث فى نفوسهم أن يرتبكوا فى شأنه صلى الله عليه وسلم بين ماهم عليه وبين مايقضى به هذا البحث ، وهذا يدعوهم بكل شدة إلى التحقيق والتدقيق فى موضوعه صلى الله عليه وسلم، وهم إذا فعلوا ذلك وصلوا إلى الحقيقة، فان من يصدق اتجاهه فى أى موضوع يصل إلى صميمه بلا أى تردد ، ولا يكن عندك أدنى ريبة فى أن هذا الباب هو الباب الذى وصل منه كثير من مخالفينا إلى معرفته صلى الله عليه وسلم المعرفة التى أصبح أحدهم بعدها يدافع عنه صلى الله عليه وسلم وعن دينه دفاعا قد لا يحسنه الكثير من خاصة أتباعه صلى الله عليه وسلم ،وأرجوك أن تراجع ماقالوه لتعلم مبلغ ماأقول ، وحسب القارىء ما ذكرناه ليعرف إجمالا جواب ذلك السؤال ، ولو أنا أردنا أن نوفى الموضوع حقه لطال الكلام طولا لا يتلاءم مع ما التزمناه من الاختصار فى هذه الرسالة .

خاتمة

وبعد فان رجائى الشديد من حضرة القارىء الفاضل أن يستوعب

كلمتى هذه قراءة مع التأمل والتأنى ومجانبة العجلة ، ليعلم منها من هو نبيه صلى الله عليه وسلم بين جميع الخلق ، وليجزم حضرته أن مثلى ومثل كل من تكلم عنه صلى الله عليه وسلم مثل من ظن أنه يقدر على عد ذرات السموات والأرض ، وشرع فعلا فى تنفيذ ماظنه ، فتناول حفنة من التراب الذى حوله وأخذ يعد فى وحداتها لينتهى منها ، ثم يتناول حفنة غيرها وغيرها حتى ينتهى مما شرع فيه على حسب خياله ، وماذا فعل ؟ إن الذى فعله أنه مات ولم يتنه من إحصاء وحدات تلك الحفنة التى تناولها أول شروعه ، هـذا مثلهم عند أنفسهم يصرحون به إذا راجعهم باحث يريد أن يعلم مقدار ما أحاطوا به من فضله صلى الله عليه وسلم ، وليعلم أن المتكلمين فى شأنه صلى الله عليه وسلم يتكلم كل واحد منهم على قدر معرفته به عليه الصلاة والسلام ، وعلى قدر ماتصل إليه عين بصيرته من فضله صلى الله عليه وسلم يكون كلامه وتقديره ، ووراء ما أبصر ما وراءه مما لا يعلم قدره إلا عالم الغيب والشهادة العليم الخبير ، وعيون البصائر تختلف قوة وضعفا كما تختلف عيون الأبصار ، ومعلوم أن لعيون الأبصار حدا فى مبصراتها لا يمكن أن تتجاوزه أبدا ، فالشأن فى عيون البصائر هكذا ، ومن المضحك أن يدعى مدع أنه يرى كل شىء من المبصرات فى هذا الوجود ، فان دعواه هذه تجعله أضحوكة للناس وسخرية بينهم ، فانه إذا كلف أن يخبر عما وراء قوة بصره إما أن يعترف بالعجز ، وهنا يظهر كذبه وتناقضه ظهورا مخجلا ، وإما أن يندفع فى تيار دعواه ، وحينئذ يخبر وهو لايدرى ما يقول ، فتارة يصيب إصابة هى (رمية من

غير رام)، وتارات يخطىء ، فاذا سمعه الناس وهو يهذى ذلك الهذيان ضحكوا منه وسقط من أنفسهم سقوطا يجعلهم لا يحترمون له كلمة ولا رأيا ، والنبي صلى الله عليه وسلم فى كماله أوسع من هذا الوجود ، وحدود كماله هذا لا يعلمها غير ربه الذى آتاه ما آتاه من فضل ، واذن نقف فى هذه الكلمة عند هذا الحد معترفين من كل قلبنا أن ما غاب عنا من فضله صلى الله عليه وسلم أوسع مما يغيب عن نظر الناظر فى كل هذا الوجود أرضه وسمواته — مشفقين على حضرة القارىء الذى نعلم أنه يتمنى أن لو تجنبنا التطويل وهو لذلك يرجو الاتمام والختام

والله تعالى أسأل أن يوفقنى لاتباعه صلى الله عليه وسلم ، فان البركة كلها فى هذا الاتباع — وأن يتقبل منى أعمالى التى منها هذه الكلمة — وأن يغمرنى بفضله فينفع عباده بما أكتب ، وبما أخطب ، وبما ألقيه فى دروسى ومجالسى من نور دينه الحكيم — وان يجعلنى بين خلقه علم هداية ، لا يرانى أحد إلا يرى فى شخصى ما يكون هاديا له إلى الطريق القويم — وأن يميتنى على دينه غير ضال ولا مضل — وان يحشرنى تحت لواء صفوة خلقه صلى الله عليه وسلم — وان يرفع قدرى ويشرفنى بمعيته صلى الله عليه وسلم فى دخول دار كرامته خالدا فى رضوانه الذى لا يسخط بعده ابدا ، اللهم آمين ، والله تعالى اعلم ،

يقول مصطفى الحمامى : انتهيت من كتابة هذه العجالة ضحوة يوم الاحد الموافق ١٥ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٧ ﻫ وانتهى طبعها أول يوم من شهر جمادى الاولى من هـــذه السنة والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

أنين الخائفين ، وحنين العارفين

هذا اسم قصيدة يعرف قدرها من يقرأها ، ولو سمع لنا حضرة القارىء لوصيناه وشددنا عليه فى الوصية أن يجعلها من أوراده اليومية يرفع بها حاجاته الدنيوية والأخروية إلى مولاه عز وجل ، وهذا نص هذه القصيدة التى تعد من التحف الاسلامية القليلة المثل ، قال فضيلة الناظم حفظه الله .

إلهى كل هذا الكون لولا ك سلب لا وجود له يعرّف
وما فى الكون من خلق وأمر فمنك به كمالك قد تصرف
سؤالك لذة لاصبر عنها وعز فى اطّراد لا يكفكف
وباب من محيط الجود منه جزيل الفضل للسؤال يصرف
إلهى ما لنا فى كل حال سواك فكن لنا يارب وارأف
إلهى إنها الآثام تردى وتسقط بيننا الرجل المشرف
وماهى بالمخيفة أى خوف إذا ما عفوك المرجو أسعف
وهل أحظى بهذا العفو إنى حريص أن يكون فلا أعنف
مناقشة الحساب أخاف منها وإنى من عذاب الله أخوف
وكيف يطيق نار الله عبد إذا قرصته نملته تأفف
فغوثا ياغياث الخلق غوثا فإنى مؤمن إن جرت أأسف
بفضلك عامل المسكين إنى إذا عاملتنى بالعدل أتلف
وماصنعت يدى من صالحات أخاف عقابه إذ لم يثقف
رأيتك بى مع الغفلات برا وبرك لا يحاط به فيوصف
ظلام جهالتى بدلت نورا به ظلمات جهل الناس تكشف

وفى هذا الوجود أذعت ذكرى … وكنت كذى الجاهل لست أعرف
وواليت الهبات على حتى … غدوت برانى الشرفاء أشرف
فمن كل الرذائل نقّ قلبى … نقاء لا يغادر ماينظف
ونزه عن قبيح الفعل كلى … لألقاك المصون بما تعففت
وبين ذوى النهى اجعلنى منارا … لهم إن نهج فهم الحق أسدف
وبالعمل النبيل املأ حياتى … مع الاخلاص فيه لكى أشرف
ومن كل البلاء قنى فضعفى … لدى أدنى ابتلاء منك أضعف
وما كل العوالم أى شىء … إذا هذا البلاء بدا وخوّف
ومالى ياولى الأمر أكثر … وضاعفه حلالا كى يؤلف
وأكرمنى بتوفيق لبذلى … له فى كل ماترضى لأزلف
ومن إبليس ثم بنيه صنى … وإلا كنت بالاغواء أنسف
وحصن من شرور الناس شخصى … فشر الناس قد أشرى وأسرف
ولا تشمت عدوا بى وطمئن … حبيبى إن على شأنى تخوّف
وضاعف بالقناعة عز نفسى … وجنبنى مطامع من تزيف
وجمل حالتى وأدم صفائى … وفرّج بى إذا ما الكرب طوف
شهدتك بى لطيفا طول عمرى … فكن يارب بعد الموت ألطف
وبعد البعث بالالطاف حطنى … وأمنى إذا ما الهول أرجف
فعفوك لا يحد فلا يضق بى … وقد وسع الكفور متى تحنف
وأدخلنى من الفردوس دارا … بأعلاها بها يارب أتحف
ولا يسبق دخولى ذا حساب … وإن عملى كبا ونبا ونيف
وآبائى وأبنائى وأهلى … وأحبابى بهم ربى تلطف

إلهى مادعوت به أجبه　　فانك بالمجيب السؤل تعرف

وحاشا أن ترد ـ وأنت رب الـــعطاء ـ دعاء مضطر تكفف

وصل على نبى كل فضل　　به أنعمت من كفيه يصرف

وصل على ذوى الايمان طرا　　وصل على حتى لا أخلف



ألحان الهيام ، بحب علم الاسلام

اقرأ هذه القصيدة التى هذا عنوانها ، وردد النظر فيها ثم ردده لتعلم منها ماهو الوحى الالهى وما قيمته بين سائر العلوم ؟ ولتفهم حق الفهم أى نبل نبل أهله فى الدنيا والآخرة ؟ وأى انحطاط انحطاط من حرموا شرف تعلمه ؟ وإن استبشعت هذا الانحطاط فى الدنيا فتأكد أنه فى الآخرة أبشع وأبشع ، كيف لا وهو قد يفضى إلى شقاء الأبد — ولتلمس بيدك مبلغ حب العلماء له بل وهيامهم به ؛ وجدير والله هذا العلم أن يعنى به كل العناية ، فانه آية السعادتين ، وحسبك فى هذا قول حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) . رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وابن ماجه ، ويكفى الجاهل بدين الله أن يعلم أن هذا الحديث يقول عنه إن رب العالمين لم يرد به خيرا ، وهو مما تتقطع له القلوب حسرات ، ولهذا قال الاستاذ الناظم أطال الله حياته فى عز وعافية ، وأدام النفع به ونماه ثم نماه :

للعـــلم كل مجياتى وروحاتى وفيه كل صباباتى وراحاتى
وعنه أترك أو آتى رهين إشا رات له ما أحيلاها إشارات
يحاوله السهد فى عينى فألزمه كأن نومى عندى فيه إعناتى
إلى عباراته أصغى فيا جذلى بما يناول فى تلك العبارات
عاديت من نشأتى فيه الهوى وغدا شغلى به شاغلا عن كل لذاتى
لاحت مواكبه لى فاتصلت بها دامت مواكب أحبابى وساداتى
بوركت يا ركبه قربت منتجعى ومن سناك انمحى داجى جهالاتى

أحبه حب عـــذرى لغانية　　فى فضلها رأت الألباب جنات
بل ما الغوانى وهن المغويات ومحبوبى الدليل لأنواع الهدايات
ان المهات بعــلم لا أحاذره　　كالعيش يتلو جهالات مقيمات
فالميت حى إذا بالعلم مات وإن　　بالجهل عاش فميت وابن أموات
فذاك آثاره لا تنمحى وعلى　　مر الدهور نراها فى زيادات
وذا وإن عاش كثرا ليس من أثر　　له سوى الموبقات المستديمات
بل لوقضى كان خيرا من معيشته　　إذ كان ينقص مجموع الجنايات
وذاك ذكراه ملء الأرض عاطرة　　رياه تذكو لدى الموجود والآتى
وذا إذا ذكروه فى دويرته　　لجيفة ريحها تؤذى الدويرات
العلم يثمر ما يسمو بصاحبه　　إلى المقامات بل سامى المقامات
والجهل ينتج ما يهوى بحامله　　إلى الحضيض لعينا فى السموات
وكل خير رأيت العــلم والده　　أما الشرور فأولاد الجهالات
من أجل هذا أحب العلم أعشقه　　وأكره الجهل كرهى للمميتات
أخص بالحب دين الله أنزله　　كى تطهر النفس من شتى النجاسات
وكل علم بعلم الدين ينفعنى　　أحبه لعـــلاقات الاعانات
وغير ذا العلم لا يسموا لرتبته　　فانه لا يتـق الظالم العاتى
يلومنى فيه أقوام ذوو حسد　　طاشت سهامهمُ أهل الملامات
هو الأمان لهذا الكون من خطر　　به يزول بلا رجعى العبادات
هو المجير من الالحاد يطرده　　طرد الغيور لأرباب الدناءات
وكيف يكفر بالرحمن صنعته　　أو بالنبوات تلميذ النبوات
وكيف يكفر بالدين الحنيف فتى　　يحيط شيأ قليلا بالديانات

الجهل بالدين فى هذا الزمان هو ال ... أس العظيم لهاتيك البليات
قد ألحدوا وفشا الالحاد بينهم ... فأنكروا الله خلاق البريات
وألفوا كتبا تدعو العباد لذا ... ووزعوا الكل حتى للمجلات
يبغون للكفر نصرا فى الوجود فهم ... يبغون للناس تغليظ العقوبات
فالكافرون لهم فى النار من ألم ... ماليس يدخل فى حد النهايات
هم خالدون به لا ينتهون إلى ... حد به ينتهى الماضى ولا آتى
ما كان هذا لهم إلا لأنهم ... ماتوا وهم بجهالات عظيمات
ولو تحلوا بعلم الدين كان لهم ... بين البرية ثوبا من كمالات
وكان يعنى بهم حتى يوصلهم ... دار الكرامة موفورى الكرامات
فيها لهم كل ماتهوى نفوسهم ... يدوم هذا دوام السرمديات
هذا هو العلم فلأفرح به أبدا ... أنا به فوق هامات السموات
أنا به الشمس يهدى نورها زمرا ... كانت جهالاتهم فيهم مخيفات
أنا به كلماتى فيصل لبق ... إذا غدوا فى خصومات شديدات
دينا يراها الألى للدين قد خضعوا ... كأنها صدرت من فى النبوات
إذا مشيت ورائى المؤمنون مشوا ... وإن وقفت رأوا خافى جنايات
تلك الأيادى لعلم الدين جاد بها ... على وهو ضحوك فى مسرات
فكيف اسمع لوما فى محبته ... إنى إذن ذو سجيات لئيمات
وتهنئاتى بهذا للأصدقاء له ... وتعزياتى لأرباب العداوات
أما أنا فعبيد العلم أخدمه ... مادام بى رمق تبق به ذاتى